چوليا كورساليني

قارئة تشيخوف



ترجمة:

مروة عبد المنعم طنطاوي




mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab
mohamed khatab
mohamed khatab

I.

أدين لأنطون تشيخوف بعملي الحالي في معهد اللغات والثقافة الروسية بمدينة كييف، وبعام من التدريس الجامعي في إيطاليا وشغفي بالأدب. قبل بضع سنوات، في واقع الأمر، وبدافع اهتمامي بأعماله القصصية، قمت بإعداد دراسة استحقت النشر وكانت ذات قيمة علمية كبيرة، وبفضلها تم تعييني في هذا المعهد حيث أقوم، في الحقيقة، بأعمال السكرتارية بشكل أساسي، خلف نافذة تطل على شارع قديم. ومن حين لآخر أقوم بتدريس دورات للطلاب الأجانب، ولكن في المستوى الأول فقط وأنوب عن أساتذة معتمدين. وهكذا أشرح للطلاب أن سيبيريا تُكتب «Сибир» باللغة الروسية ولماذا سميت بهذا الاسم. وتطلُّ الفصول الدراسية لهذا المعهد أيضًا، على الرغم من شهرته، على الشارع نفسه المعتم باستمرار. في حين أنني عندما كتبت تلك الدراسة وعنوانها «حضور تشيخوف في السرد الروائي الإيطالي»، كنت في إيطاليا، بماتشيراتا، وبها مدينة جامعية صغيرة مشرقة تقع على هضبة، حيث كنت أعمل راعية لامرأة عجوز تدعى مارئانچيلا. عشت في تلك المدينة عامًا واحدًا، بالتحديد منذ شهر يونيو 2003 حتى يونيو 2004؛ وكان عامًا شاقًا للغاية بالنسبة لي ولابنتي، ومع ذلك، كنت سعيدة أيضًا أثناء تلك الفترة؛ سعيدة، حسنًا، بأسهل الوسائل وأقصر المدد حيث يمكن للمرء أن يشعر بتلك السعادة، أو بالأحرى باعتزازي بنفسي.

كنت أبلغ من العمر أربعين عامًا، وابنتي كانت في الثامنة عشرة؛ كانت تدرس الطب وترغب في الزواج من ڤانچا. كان المرض الذي يقوض جسد زوجي منذ عدة سنوات قد شلَّ حركته وألزمه الفراش. وقد اتخذنا معًا قرار ذهابي للعمل في إيطاليا؛ ودخل هو دار رعاية المسنين. وهناك شيء واحد مؤكد: لم يكن لدينا شك، لا أنا ولا هو، حول ضرورة ذهابي. والحقيقة هي أننا لم نضع أولوية مستقبل كاتيا ابنتنا قط موضعًا للشك، في كل الظروف الأخرى للحياة. وعلى هذا النحو، بدا مقبولًا أيضًا خطر وفاته أثناء غيابي وعدم رؤية بعضنا بعضًا مرة أخرى. ومع ذلك، كان هناك وفاق بيننا في مراحل مرضه الأولى. ليس فقط للمصير الذي كان مقدرًا له، بل التوقيت نفسه، أقصد مرات التنزه التي كان من شأنها أن تبطئ حالة الشلل وكنا نقوم بها معًا، في كل صباح، لمدة عامين على وجه التقريب. وأُتيحت

لنا فرصة أخيرة للقاء مرة أخرى.

في ذلك الوقت كنا نعيش بمدينة كييف، في شارع أنًا أكماتفا، بمنطقة دارنيكچا، نقطن بالطابق السادس في عقار عالٍ فاخر، في شقة اضطررنا لبيعها بعد ذلك نظرًا للوضع آنذاك.

من النوافذ الخالية من الستائر أو المصاريع، كنت أستقبل كل يوم التغيرات في السماء. عندما كنا نستعد للخروج، كانت السماء لا تزال مظلمة، وغالبًا ما كان الثلج البزّاق المتكتل يغطي أطر النوافذ ويتلقى الأشعة الأولى. أيقظ زوجي وأنا أهزُّ ذراعه. كان يرتدي ملابسه على مهل في الفراش وهو يدير ظهره. يرفع ذقنه ليعقد رباطة عنقه. كانت كاتيا تنام في حجرتها. كنا نوصد الباب بهدوء حتى لا نوقظها؛ نهبط الدرج البارد الخالي، لكنه مفعم بالروائح، مع إشارات طفيفة لاستيقاظ أحدهم خلف الجدران، والضوء تحت بعض الأبواب. عندما كنا نخرج إلى الشارع كنت أمسك بذراعه بشدة، وكنا نخطو خطًى سريعة في صقيع الصباح، والقبعتان والياقتان تكشفان بالكاد أعيننا. أما في الربيع والصيف، كنا نستنشق أكبر قدر ممكن من الهواء ووجهانا مكشوفان. كنت أستشعر تغير الفصول من الروائح حتى قبل الدفء، وأستعيد بذاكرتي السنوات الأولى لزواجنا خاصة ويوم مولد كاتيا. كان لدينا مسار ثابت، يغطي الحي بأكمله، أو بالأحرى لوحة الشطرنج للوحدات السكنية التي تشبه ما كنا نقطن بها، أو الأقدم منها أو المتهالكة. كان الفجر يأتي على مهل، يضفي إشراقة على الجو، وتظهر من وراء كتلتها الرمادية، سحابة أرجوانية في الأفق؛ وفي بعض أيام سوء الأحوال الجوية، تظل السماء معتمة، وكأنها امتداد للَّيل بين البنايات السكنية، التي تبقي الأنوار مضاءة. وفي كثير من الأحيان، على النقيض، كان يستقبلنا فجر غائم شاحب حليبي اللون، يرسل انعكاسات ضاربة إلى الحمرة على النوافذ العليا التي كانت تلمع مثل المرايا. في الشارع كنا نتقابل مع عدد قليل من الناس، وخاصة عمال تفريغ البضائع وأصحاب المتاجر، وعمال الورديات في مصنع للمواقد بعضهم من معارفنا؛ كانوا يجيئون نحونا ببطء، مضطربين وكأنهم عمال مناجم خرجوا من الأرض؛ كان أحدهم شابًا طويل القامة ضخمًا، مستطيل الوجه، يتحلى بألفة غليظة حمقاء، كنا على علم بأنه كان يتطلع منذ فترة طويلة إلى منصب إداري وربما ما زال يفكر فيه إلى الآن دون أن يبدي ذلك. على أي حال، إن كل جسم سليم، في أي وضع وحركة، كان يحمل

بداخله مصيرًا أفضل من مصيرنا، لكننا ظللنا صامتين حيال ذلك، وأحيانًا، كنا لا نفصح عنه ونمضي، وينتهي بنا الأمر إلى نسيانه، على الأقل أكثر من أوقات أخرى في اليوم. وعلى وجه الخصوص كنا نتحدث عن كاتيا: بشغف ولكن بقلق، أيضًا. كنا ننتشي من عزة النفس؛ الأمر الذي كان يضفي على أحاديثنا التكرار والمبالغة؛ ومن جانب آخر كان يؤرقنا المستوى المادي المنخفض لڤانچا الذي من شأنه أن يضيف عبئًا على فقرنا. كان زوجي معتدل الرأي حول علاقتهما، وينظر إلى نضوج ڤانچا وجديته بشكل إيجابي.

كان يقول: "ستحصل على شهادة جامعية" (كانت تلك طريقته في إبداء رأيه في أمور جادة: يقطب جبينه، يغمض عينيه، يهتز أنفه، كما لو أنه يبذل جهدًا للتركيز). "ستجد عملًا، ستربح؛ ستكون مسألة تقديم تضحيات لبعض الوقت..." (كنت لا أصل إلى أكتافه، كان ضخمًا؛ لكنه كان ينحني شيئًا فشيئًا؛ ومع ذلك، فإن قوة بنية جسده كانت لا تزال تبعث الأمل).

كان يتملكني حنين محموم لأشكال الحب المثيرة ورأيت في اختيار كاتيا تنازلًا. كنت أرغب في خلط الأوراق بطريقة ما، وأعيد إليها فرصة ثانية، ولقول الحق أيضًا، لفترة طفولة أخرى؛ كنت سأفعل أي شيء لأجعلها، على الأقل في البداية، سعيدة حقًا. كانت كاتيا فتاة عنيدة منطوية صارمة؛ كانت إنسانيتها تفلت باستمرار من يدي. كانت تُكِن تحفظًا كبيرًا تجاهي، لكنني لم أتخلَّ عن اعتقادي بأن هناك حساسية يقظة بداخلها، حادة مؤلمة غريبة، ورغبة عاطفية متعطشة للخير لنفسها ولنا. لقد بحثت بالفعل عن علامات هذا الاستعداد لديها وهي طفلة، وفسرت بعض نظراتها الجادة للغاية وتحفظها في قول الحقيقة حول أفكارها على أنها وعي مبكر. كنت أتجول في غرف شقتنا، وأنا أطارد بنصف ابتسامة يعلوها نوع من التخوف المَرضي، الإحساس بضخامة روح طفلة عابسة صامتة ترفع ناظريها ناحيتي أكثر من مرة وتثبتها دون أن تنبس ببنت شفة.

كنت أذكّر زوجي بشغف كاتيا بالرجل الآخر الذي ارتبطت به لفترة وجيزة، وقد جعل منها ذلك الشاب المندفع المجنون السخي فتاة متوترة سعيدة مثل حشرة اليعسوب.

"لقد قلتِ للتو متوترة؛ كان يثير أعصابها، ويجعلها مضطربة. ڤانچا يطمئنها".

ڤانچا، غير أنيق، متواضع، في الواقع كان يسيطر على تلك العلاقة بثقة غريبة، وفي صبر ينال انقيادًا كاملًا من كائن منغلق عنيد معتاد على المغازلة. كانت كاتيا بلا شك جميلة جدًا بالنسبة له.

كان زوجي يقول: "اتركي كاتيا تختار، افصلي حياتها عن حياتك، ميزي بينها وبينك". على الأرصفة في الطريق، كانت تطقطق تحت أقدامنا طبقة رقيقة من الثلج تكتلت أثناء الليل؛ وغالبًا ما يكون زلقًا؛ ويبقى الطين لفترة طويلة بعد ذوبان الثلج، وهو عبارة عن طبقة من المياه الكثيفة المتسخة على الرصيف غير المستوي، حيث تسبح فيه الأحذية. وكان ينعكس فيه، من خلال الهواء الذي كان لا يزال معتمًا، الضوء الدافئ لمقهى مفتوح حيث كنا نذهب أحيانًا لتناول الشاي وللتدفئة. كان زوجي يرتشف الشاي وهو يتصفح الجريدة، على رف على الحائط، يقف، متكئًا، وسرعان ما يجذب انتباهه أحد الأخبار؛ وأنا أجلس على مقعد، وأضع أصابعي المجمدة بالقرب من الفنجان الساخن؛ وإذا ما نظر إليّ، أبتسم له بسبب اللذة التي كنت أشعر بها وأنا أتدفأ.

"هل تشعرين بتحسن؟" كان يسألني وهو يترك الصحيفة، يخرج محفظته من جيبه، ويذهب ليدفع الحساب، ثم يقترب مني. كان يضم أصابعي بين يديه. كانت تفوح من المقهى رائحة القهوة والبريوش الساخن وأيضًا بعض المنظفات؛ كان ضيقًا، معتمًا، منزويًا؛ أما النادلة التي كان زوجي يطلق عليها أوبلوموڤا، فقد كانت تنتظر دون عجلة، تمرر وهي ناعسة قطعة من القماش على الطاولة أو تتكئ على الرف بذراعيها المطويتين، حتى تعود الحركة في المدينة وتأتي إليها. وعندما كنا ننصرف، كنت أتعلق بذراعه على الفور. وعلى الرغم من أننا كنا نتحدث عن كاتيا، فقد كانت تلك النزهات بالفعل تجربة لانفصال حياتنا عن حياتها؛ وكان لا بد أن تكون لها فائدة، لكنها في حريتها الظاهرية ولحرصنا عليها، كانت لها علاقة بسنوات شبابنا، عندما لم تكن كاتيا قد ولدت بعد؛ وعلى الرغم من أنها كانت نزهات يائسة، فقد كانت تربطنا بصورة ما من جديد بأوقاتنا الأولى أو على الأقل بذكرياتي عنها: حيث لا توجد لحظة محددة، في الحقيقة، ولكنها تقريبًا فقط مجموعة لا يمكن تحديدها من التوقعات المشتركة تحفها الثقة.

II.

حسنًا، في إيطاليا، وقبل دراستي الجامعية، عشت لمدة ثمانية أشهر، من شهر يونيو إلى فبراير، في منزل ماريانچيلا، وهي امرأة عجوز حزينة تدقق في كل شيء، كان يعتني بها أخ يصغرها في العمر، ومع ذلك، لم يكن يعيش معها. تلك الشهور الأولى، وأنا أسترجعها الآن في ذاكرتي، تعد بمثابة غرفة الانتظار لذكريات غير واضحة، ذكرى ساعات الملل والخمول بجوار السيدة العجوز، وتختلط بها ذكرى قراءاتي المستمرة المنهكة. ومع ذلك، أستحضر أيضًا لمحات من سماء ساطعة أثناء نزهاتي طول أسوار المدينة، ومساحات من التلال والجبال في رؤى مفتوحة واسعة صافية صيفية، وحماس الإحساس بحيويتي في الحرية التي كنت أستعيدها. كنت أستفيد من فترات الراحة ما بعد الظهيرة للتجول في الطرق. كانت ماريانچيلا تقطن في حي معروف باسم "الحرفيين"، قديم متهالك بعض الشيء، ولكن توجد به كنيسة رائعة للسيد المسيح على الطراز الروماني، بسيطة ضخمة، ويظهر الريف من خلفها. كنت أسلك الطريق فيما وراء الكنيسة وأهبط بين أشجار الزيتون والسنط البرية الملتوية على الطريق، أو أصعد نحو وسط الحي، بمحاذاة الأسوار بطول طريق من أشجار الزيزفون ينفتح على أفق من التلال جمالها لا مثيل له. في المساء، كانت ماريانچيلا تظهر من الجانب، وهي تصلي، مجرد ظل رمادي في ضوء نافذة مفتوحة على السماء، حيث كادت طيور السنونو تصرخ وهي تدخل. كان أخوها ينصرف بمجرد أن يراني عائدة. ومن نافذة المطبخ، كانت تأتي روائح الصيف، وأشجار الزيزفون، والسنط، ونباتات الحدائق والحقول التي كانت تمتد خلف المنزل. كانت الغرف الأخرى مغلقة، تفوح منها رائحة الرطوبة الحادة. ولكن أثناء الغداء والعشاء كانت تلك النافذة تعيد الحياة إلى منزلنا.

كانت وجبات هادئة تؤديها ماريانچيلا كأنها أحد الطقوس، بروح مزدوجة، تارة شديدة الانتباه لأدق التفاصيل، كما لو كان الطعام واجبًا لا بد من إتمامه، أو حتى لزامًا عليها، وتارة أخرى غائبة متبلّدة بعيدة. وعما إذا كان هناك شيء يمر سريعًا أمام روحها الثانية تلك، أو سواء كان هناك شيء يتدفق فيها أو لا توجد بالتحديد نقطة ثابتة من الماضي أو التمسك بالحاضر، هذا ما لم أستطع تخمينه بأي حال من الأحوال؛ ففي بعض الأحيان كنت لا أطيق الدقة المتناهية في حركاتها: مضغ الفم

الذابل، الثنية الغاضبة للعينين المنخفضتين، وفي أحيان أخرى كان وجودها فقط يؤنسني.

كانت ماريانجيلا مصابة بداء السكري وضعف البصر، وكان عليّ إرشادها في تحركات محدودة داخل الشقة، والانتباه لعدم وقوعها، ومساعدتها للذهاب إلى الفراش، والنهوض، وإعداد وجبات الطعام، وقياس نسبة السكر في الدم، وحقنها بالأنسولين، وأشياء قليلة أخرى. كل سبت كنت أحممها؛ وأمسح بالإسفنجة برفق جسمها الهيكلي الذي لا حياة فيه، وبشرتها البيضاء المترهلة. كانت عادة تصمت وتصلي، أو تشتكي، ولكن بطريقة واهنة متشتتة، على الرغم من أنها لم تكن تفقد وعيها تمامًا. عرفت عنها فقط أنها لم تتزوج وعملت لفترة طويلة في محل حياكة؛ فباستثناء شركة سنجر والمنزل، لم يبق لها شيء تقريبًا من ماضيها المسكين. هناك صورة بإطار لفتاة، يظهر فيها وجه، ويدان متشابكتان، وبشرة وشعر داكنان، قبيحة بعض الشيء. لم تكن تخرج قط، وباستثناء شقيقها، ونادرًا زوجة أخيها وحفيدة لها غريبة، لم يكن يأتي أحد لزيارتها. لقد كنا وحدنا، طوال الوقت، نحن الاثنتان. كنت أتخلص منها بالقراءة، في ساعات لا تنتهي من الصمت والغربة.

كنت قد أحضرت بعض الكتب من أوكرانيا، منها "*الكتاب المقدس*"، و"*ابنة القبطان*"، و"*آنا كارنينا*"، و"*الليالي البيضاء*" في طبعة القرن التاسع عشر الصغيرة التي كنت أحتفظ بها أعلى البيانو في المنزل، وهما المجلدان الثمينان المتهالكان لقصص تشيخوف. كنت أعيد قراءة هذه الأعمال على وجه الخصوص: "*في العربة*"، "*حياتي*"، "*ثلاث سنوات*"، "*زوجتي*"، "*قصة رجل مجهول*"، "*حكاية مملة*"... وحول مشاعري المضطربة، المفعمة بالمعاناة وعدم القدرة على الاستيعاب، كانت تلك القصص تعيد بناء الإحساس بمصير مشترك، وعبارات جافة ثاقبة، دون أي كلمة زائدة. *منذ وقت بعيد كان لديها أب وأم؛ كانا يعيشان في* موسكو... وهي بوضوح، ولأول مرة *طوال هذه السنوات*، *تخيلت والدتها، والدها، شقيقها، الشقة* في موسكو... سمعت *فجأة صوت البيانو... لو كان لي أن أرغب في اختيار خاتم لي، فسأختار هذا الكتابة: "لا شيء يمر"... ما عشته لم يذهب سدى... ذات مرة كان يعجبها عندما كانوا يقرؤون القانون أثناء الخدمة الليلية... من بين جميع المعارف الذين كانوا يشربون ويأكلون في هذا المنزل منذ وقت بعيد، قبل خمسة وعشرين أو خمسة وثلاثين عامًا... كان حيًا إيڤان إيڤانيك براجين فقط...*

أنا في شاركوف... بأمانة، كاتيا، لا أعرف ...لا أدري كم مرة قد قرأت *«حكاية مملة»*، كنت أعرف المشهد الأخير عن ظهر قلب: الأستاذ الذي يطلُّ على باب غرفته بالفندق، كاتيا (دائمًا ما يكون شعرها غير مهندم بعض الشيء لأنها تقضي ساعات وهي متكئة على ظهر المقعد - وبعض الدبابيس والخصلات تتساقط منها) تبتعد في الممر ولا تلتفت. "إذًا لن تحضري جنازتي؟" يود أن يسألها؛ بل قال لها في نفسه عندما رآها تختفي "وداعًا يا حبيبتي".

وبإيحاء من تلك القراءات، في أوقات الفراغ ما بعد الظهيرة في منزل ماريانچيلا، قد قررت أن أقوم بإعداد بحث حول تأثير أعمال تشيخوف في السرد الروائي الإيطالي. كنت أعرف اللغة الإيطالية وبشكل جزئي الأدب الإيطالي؛ لأنني كنت قد درستهما بالجامعة (لقد حصلت على الشهادة الجامعية رغم ولادة كاتيا، وكنت أعمل أثناء ساعات نومها) وكان بإمكاني الاستفادة من إقامتي في إيطاليا لإعداد ورقة بحثية، أو دراسة، أو أي شيء يعتمدني بمعهد اللغة والثقافة الروسية في كييف، حيث كنت أحاول العمل به منذ فترة طويلة. كانت انطلاقة فريدة للتخطيط والتجربة العملية والثقة، وهو ما أوضحه اليوم بصعوبة بعض الشيء. كانت طبيعة شغفي بقصص أنطون تشيخوف تميل خاصة إلى قراءة فوضوية وعاطفية؛ أما الباقي، فقد جعلتني ظروف حياتي امرأة غريبة تمامًا عن العالم الأكاديمي والبحثي. وعلى الرغم من ذلك، فقد قررت أن أتردد على مكتبة اللغات بجامعة المدينة حيث يوجد بها أيضًا مركز الدراسات السلافية كما قيل لي. ذهبت إلى هناك للمرة الأولى بعد نحو ثلاثة أشهر من وصولي إلى إيطاليا.

جلست والكتب أمامي: مجموعة من الأرفف الخشبية الداكنة مغلقة بالزجاج تمتد بطول الحوائط مليئة بمجلدات؛ لم يكن هناك أحد، فقط هدوء مخيم وإضاءة شديدة؛ فقد طلبت من فتاة خلف طاولة العمل استعارة مجموعتين قصصيتين لنينا بِربِروڤا، وللاطلاع على أحدث إصدارات لقصة أدبية عظيمة كنت أعرفها. أخرجت من حقيبتي دفترًا صغيرًا وقلمًا، وداعبت بيدي الطاولة الملساء، وتذوقت الصفحة باللمس. كانت حركات من عصر آخر؛ حركات معتادة في أيام مفعمة بالثقة، بل في ليالٍ ينام فيها الاثنان الآخران، في البيت، آمنين سالمين؛ فمنذ أن مرض زوجي، لم أعد أكتب شيئًا. لقد بدأت في القراءة وتدوين الملاحظات مثل من يعاود السير مرة أخرى. لكن الانشغال بكاتيا كان يلهيني. كان التفكير في ابنتي في

تلك الأيام يؤرق كل لحظة هدوء لي، ويقيدني. في المرة الأخيرة التي رأينا فيها بعضنا بعضًا ثانية، حينما اضطررت إلى العودة سريعًا إلى كييڤ بسبب مشكلة تتعلق بتصريح إقامتي، كانت هناك أمور كثيرة في غير موضعها واستشعرت بوادر أزمة واضحة؛ لا يعني ذلك أنه لم تكن هناك غيرها، في السابق، لكن بصورة ما في تلك الأيام تحول توازن علاقتنا بوضوح نحو منعطف سلبي. عندما وجدنا أنفسنا بمفردنا، على العشاء، الواحدة أمام الأخرى في المطبخ الصغير المستطيل بالمنزل، ولم يعد والدها موجودًا، أدركت أنني كنت أثير فيها، رغمًا عني، نوعًا من العداء أشد قسوة من المعتاد. في الشقة الجديدة، الضيقة، بالطابق الأرضي، ونوافذ تطل على جدار حاجز، يرتفع قليلًا عن الطريق (ومع ذلك، فإن المساء الصيفي، قد توقف أيضًا عند ذلك الجدار، والشعاع الدافئ قد انكسر على النبات المتسلق المتناثر وأنا، كنت لا أزال أعتبر إقامتي في إيطاليا عزلة قسرية، قد شعرت، على أي حال، بأنني عدت إلى البيت)، قد اكتشفنا أننا غريبتان أكثر من المعتاد، غريبتان لديهما دوافع للاستياء وبعض الذكريات الغريبة المشتركة. لقد حملني إرهاق الرحلة الطويلة بالحافلة على الشعور بالغثيان وقبل ذلك بقليل، وأنا أتكئ على السرير، أحسست بتعب شديد إلا أنني أخفيته عن كاتيا؛ كنت أرغب في أن تراني بصحة جيدة وألا تنشغل بي؛ ولا حتى نتحدث كثيرًا عن والدها؛ كنت أريد راحة وألفة بيننا.

"كاتيا، هل تعلمين؟ أهدوني ثيابًا..." أخبرتها وأنا في غرفتي أغير ملابسي. تلك الثياب كانت ملكًا لحفيدة ماريانچيلا، امرأة غريبة الأطوار، ثرية مهملة، نظرتها متجهمة، ينخفض صوتها، ليس لأنه صوت وديع، ولكن يبدو وكأنه يصدر من امرأة أخرى تتحدث من جانب آخر، صوت رتيب، واهن.

"إنها على غرار السيدة إيڤانوڤا، لكي تستوعبي الأمر". كنت قد انتهيت من تغيير ملابسي في صمت. وهي لا تتفوه بكلمة. عدت إلى المطبخ وأنا أبحث عنها بعيني بين الغرف. كانت قد جلست أمام الطاولة، وسكبت الحساء في الأطباق وأخذت تأكل.

"تزوجت من رجل ثري، ولديهما شقة كبيرة مبطنة من الداخل بلوحات، تقع في وسط المدينة التاريخي، لا بد أن تشاهدي وسط المدينة التاريخي... مبانٍ ذات

الطابع المعماري للقرن التاسع عشر محاطة بشوارع ضيقة للغاية تبدو وكأنها أزقة". كانت شاحبة، هالات سوداء عميقة تحت عينيها؛ شعرها مربوط بمشبك أعلى الرأس بطريقة سيئة؛ تهزُّ ساقيها بعصبية تحت الطاولة وانتقلت الحركة إلى الجسم كله؛ كانت تتناول الطعام بلا شهية.

"أمر مؤسف أن تلك الثياب ليست مقاسك، وإلا تركتها كلها لكِ. كانت ستناسبك جدًا". كانت تصمت، وبالكاد تبتسم. إن جسدها المحموم، المندفع، وكتفيها العريضتين النحيفتين، المنحنيتين قليلًا فوق الطبق، وصدرها الذي يبرز بالكاد تحت "تي شيرت" خفيف مجعد، تكشفوا لي، وأنا أنظر إليها أخيرًا في تلك اللحظة، ويعلوهم في الوقت نفسه الإحساس بعدم الثقة والتراخي.

"هل تذكرين الثوب ذا الزهور الحمراء الذي اشتريناه معًا وأنتِ في الثانية عشرة من عمرك؟ لقد ارتديته طوال الموسم... كلها هكذا: مزينة بأزهار صغيرة، مع زركشة من الدانتيل. وعلى الرغم من كونها ثيابًا قديمة وقد تخلصت منها، فهي في الواقع لا تزال ترتدي بالطريقة نفسها؛ لم أرها قط ترتدي ثوبًا أنيقًا حقًا... ثم إنها دائمًا في حالة من الفوضى بعض الشيء...". كنت أواصل الكلام بعناء. كانت تتجنب صراحة طرح أسئلة من شأنها أن تسمح لي بالمتابعة، أو لأحكي المزيد؛ كانت تجيب بالكاد، بشكل مقتضب.

"ألا يأتي ڤانجا؟"، كنت قد سألتها عند تلك النقطة.

"سيأتي غدًا؛ سيساعدنا مع أبي". أجابت.

"كان بإمكاننا تناول العشاء معًا".

"سيأتي غدًا. الليلة يفضل أن يدرس". كان يعلو فمها عبوس طفيف. كنت أخشى للحظة أن تحدث أزمة بينهما. خشيت؟ من الأفضل أن أقول "كنت آمل". لكن كان من الأرجح أنهما أرادا تأكيد استقلالهما؛ فبالنسبة لها كان واجبًا أن تنتظرني في ذلك المساء. ومكثنا في صمت.

"الحمام مُكلس"، قلت لها. "غدًا سأتولى الأمر؛ ولكن بين الحين والآخر عليكِ أن تتذكري أن تضعي المُنظِّف عليه واتركيه يعمل". كنت أبحث عن عينيها. "هل تعرفين ما عليكِ فعله؟ اتركيه بالداخل لبعض الوقت، ثم نظفيه جيدًا، بالفرشاة،

وبقوة..." لم أتلقَّ إجابة. " كاتيا، يجب ألا تدعي المنزل يتسخ هكذا"، أخبرتها (في الحقيقة شعرت بحاجة ماسة لإصلاح سلوكها، منذ اللحظة التي أخذت فيها تجرحني).

"لا بد أن أهتم بالامتحانات وبأبي"، أجابتني وهي تنهض. بعد العشاء، قد تركتني أعيد ترتيب المطبخ، بمفردي؛ وعادت هي إلى غرفتها للاستذكار. غسلت الأطباق على مهل، وأنا أفكر فيها، بينما كان الظلام يخيم بالخارج وعاد الشارع ينبض بالحياة من جديد بعد العشاء: كنا نسمع أصوات الدراجات البخارية والدراجات وصراخ الأطفال وهم يلعبون في حديقة صغيرة، مهجورة، تقع خلف المبنى. كاتيا أيضًا، وهي طفلة، في الصيف، كانت تخرج في المساء. كان لديها أصدقاء في العقار القديم، وكانوا يلعبون الغميضة في فناء المدخل وبطول السياج كله، وحتى خلف المنزل. سادت لحظات من الهدوء. ساعدني زوجي في إعادة ترتيب المطبخ وكان يجفف أدوات المائدة. أخذنا نتحدث. في الخارج كانت الفتيات الصغيرات يصرخن عندما يمسكن بعضهن بعضًا. كانت كاتيا تصرخ بطريقة عشوائية، وبنبرة عالية. كان زوجي يطلُّ من النافذة. يناديها مرة أخرى. يتوقف لينظر إليها. وعندئذ أطلُّ أنا الأخرى، إلى جانبه. كانت هناك كاتيا والصغيرات الأخريات، والحي والشفق خلف المباني. في ذلك المساء، عندما كنت على وشك أن يغلبني النعاس، وفي ضوء "الأباچور" (كانت تلك الغرفة مفعمة بالذكريات السيئة)، أتت هي إليَ. كانت قد خلعت ملابسها، ترتدي سترة بيچامة والدها، كبيرة جدًا، والجزء السفلي بالسروال؛ كان شعرها منسابًا على كتفيها، ناعمًا، مموجًا. استمرت في ارتداء بيچامات والدها، وهو شكل من أشكال الاحتجاج والتعلُّق: تبقي على ثياب مخزنة في الدرج إلى الأبد، وتملؤها بجسم ينبض بالحياة ويتحرك. كانت قد مدت ذراعيها على عنقي، ومالت برأسها على كتفي، وهي تقول "ماما" بصوت خافت. كانت تفعل ذلك دائمًا حتى وهي صغيرة، بذلك الأسلوب، الفاتر، غير المتوقع الذي يملؤه التعالي العاطفي. كنت قد احتضنت رأسها، وشعرها، وثقلها عليَ دون أن أميل إليها. بجانب جسدها، كان جسدي غير متسق، غضًا ضئيلًا، وليس له علاقة بالأمومة. كنت في حيرة من التناقض بين نحافتي والعبء الداخلي لمسؤوليتي إزاء تلك الفتاة الشابة. من ناحية أخرى، طرأ عليها، بين العشاء وتلك اللحظة، تغير مفاجئ للغاية، لم أكن أرغب في الوثوق به. لم أرَ سلوكها جديدًا، لقد كنت معتادة

على صمتها وردود أفعالها المتقلّبة، لكن موقفنا كان جديدًا. على الرغم من أن تلك الحميمية تعيد إلى ذاكرتي بعض سلوكياتها الأكثر حدة في الماضي، إلا أنني لم أنخدع: إن رحيلي قد غير بالفعل عاداتها، وجعلها تتذوق حرية جديدة لا غنى عنها؛ فوجودها بمفردها مع ڤانچا، في شقة بعيدة، سمح لها، على الأرجح، بأن تصبح على ما كانت عليه في الحقيقة منذ فترة طويلة، امرأة مثيرة ساخرة بعض الشيء، تتعرض بطرق متعددة للتحرر من الوهم والقيود في مرحلة النضوج.

"هل تخافين من النوم وحدك؟".

"لا. لست خائفة". كانت تبتسم وهي تسترق النظر إليَ. وكان الضوء ينير وجهها من الجانب. وانقلبت فجأة ساخرة. "كيف جاءت تسميتها بالمرأة العجوز؟".

"ماريانچيلا».

"هل تشخُر ليلًا؟".

"تصدر أصواتًا غير إنسانية".

عندما كنت أجلس في المكتبة، كانت فكرة أن الابتعاد عن ابنتي تضحية لا تكافئ ما كنت سأجنيه منه لأجلِها، تُفجِّر أحشائي من الألم.

في مساء اليوم نفسه الذي دخلت فيه مكتبة قسم اللغات للمرة الأولى، كان مساءً حارًا في نهاية شهر أغسطس، تعرفتُ إلى أستاذ اللغة الروسية، چوليو دي فيليتشي. التفت إليَ بينما كنت أمرُ أمام مكتبه. كانت أمينة المكتبة لا تزال في إجازة وكان يخشى أن الفتاة التي ستحلُ محلها لا تعرف جيدًا قواعد المكتبة.

"لا يمكن استعارة القصص الأدبية في المنزل"، هذا ما أخبرني به.

"لدي كتابان فقط من تأليف نينا بربيروڤا"، أكدت له وأنا أقف عند الباب وأريهما له.

"الروايات يمكن أن تُستعار". كان وجهه نحيلًا؛ وكان شعره كثيفًا داكنًا، ممشطًا إلى الخلف؛ عيناه فاتحتان معبرتان؛ وكان يرتدي سترة رمادية. "معذرة يا آنسة". كاد يبتسم وأخفض رأسه إلى أوراقه؛ كانت إضاءة حجرته خافتة، ويمتد ضوء المصباح القوي على المكتب الكبير. بدا لي صارمًا، لكنه لطيف. فكرتُ أن أسأله عن

بعض المعلومات. لم أكن أعلم بأنه بالفعل أستاذ الأدب الروسي؛ ولم يكن واضحًا لي كيف أتوجه في عملية البحث، وكنت بحاجة إلى دعم فوجدتها فرصة لا بد أن أغتنمها. رفع البروفيسور رأسه مرة أخرى، ونظر إلي.

"إلى اللقاء يا سيدتي"، قال لي، وهو يحني رأسه قليلًا للتحية، ورغبته واضحة في الانصراف عني. كان رجلًا عصبيًا وحالته الصحية غير مستقرة، شديد الانتباه لأدق التفاصيل، أنيقًا. كان هذا هو الانطباع العام، وللوهلة الأولى، الذي كونته بداخلي وأنا أبتعد وأهبط درج المبنى الواسع؛ ذلك الانطباع لم يتغير حقًا قط خلال معرفتي غير السطحية به لاحقًا. الآن، على العكس، أستطيع القول تحديدًا في أي شيء تكمن أناقته ومرضه، وأيضًا لمَ هو مرتبط جدًا بشؤون قسمه. الآن يمكنني أن أحكي الكثير عنه.

III.

كنت قد بدأت التردد على المكتبة بشكل منتظم، في فترة الراحة ما بعد الظهيرة التي أستمتع بها حسبما تعاقدت مرة واحدة أسبوعيًا. في تلك الأثناء، كان الموسم قد تغير وفقدت المدينة، التي غالبًا ما كان يخيم عليها الضباب، الكثير من جاذبيتها: ففي الطقس الرطب، امتد الشحوب أيضًا على الجدران الجميلة، وأسبغها بلونه، وجعلها لزجة؛ والأفق، الذي كنت أحسبه أعظم عجائب تلك المدينة، غالبًا ما كان محجوبًا؛ فأحسست ببرد قارس مزعج على كتفي. وقبل كل شيء، شعرت بالحنين إلى عائلتي البعيدة. كنت أحتمي بمعطفي الواقي من المطر، وأخفضت رأسي من البرد القارس، وكنت أعتقد أنني سأعود بلا شك إلى المنزل في عيد الميلاد؛ ولن أستطيع التحمل لأكثر من يوم آخر. في الأوقات الأولى، شعرت أيضًا بتفاؤل غريب ممزوج بالحنين إلى الماضي والخوف: إحساس بالحرية، وإعادة اكتشاف جسدي، وحماس التجديد، إمكانات لحياة لم تُكتشف بعد. وعلى صعيد آخر، قمت بمعاودة رجل مريض للغاية لعدة سنوات (ستفتح لكِ زوايا، ستنفتح لكِ السماء، والأفق، ستشعرين بأن هناك شيئًا ستغتنمينه، وما ستتمتعين به؛ ففي هذه الأشياء هناك أمل يخصك، حتى وإن لم يكن له علاقة مباشرة بحياتك... والمعاناة، على الأقل تلك التي كنا نعيشها نحن، هذا النوع من المعاناة الذي يتطلب التفاني والعون المستمرين، سيطوي كل شيء، وسيخفض المصاريع على هذه الحياة، وكان قد استمر لسنوات). في تلك اللحظة، بينما كان الضباب يتوغل في عظامي ويدخل برد الشارع الرطب في قدمي، كنت أرغب فقط في العودة إلى البيت. لكن في مكتبة القسم، كنت أشعر بأنني في حالة جيدة، وأحتمي من سوء الأحوال الجوية؛ فالدراسة كانت تلهيني. وكنت أراها هدنة في انتظار العودة. كان مكانًا لا يتردد عليه الكثيرون ومن يأتي إليه، من الأساتذة أو الطلاب، كان يتجاهلني. وكففت أيضًا عن الانشغال بالثياب غير المهندمة، أو الأحذية والجوارب المتسخة بالطين، فلم يكن أحد في الواقع في تلك المكتبة أفضل حالًا مني، ولم يكن أحد ينظر إلي. وسرعان ما انتهى بي الأمر إلى أن أكون بمفردي مع الكتب والاكتشافات الممكنة التي كانوا يقدمونها لي (كنت أربط بينهم خيوط حياة موازية؛ فبمجرد أن يثير اهتمامي أحد المؤلفين، أطوع سرده القصصي كله وفقًا لدراستي؛ فأسجل الملاحظات، وأدون تعليقي عليها). كانت الخدمة في منزل ماريانچيلا في فترات

ما بعد الظهيرة لا تخصني؛ وكنت أعود جليسة لها فقط في بعض الأوقات، يتخللها أحاسيس سرعان ما أتجاهلها.

كان الشخص الوحيد الذي كنت أتواصل معه أمينة المكتبة، شابة جميلة، تُدعى إستير، تشغل منضدة في ركن من أركان المكتبة. كنت أثق فيها، وأطلب منها كتبًا ومقترحات عن المراجع؛ لأنني في الأيام الأولى كنت مستعدة لاستيعاب بعض مواقفها تجاه التعامل البارد الجاف بشكل عام للأساتذة والموظفين في القسم. في الواقع، كانت مختلفة، لطيفة، مجردة من الغطرسة، لكن المناخ هو المناخ وكنت مستجدة، وحيدة إن جاز التعبير، وبحاجة إلى مساعدة؛ في ذلك الوقت كنت، في واقع الأمر، جليسة مسنين أوكرانية في الأربعين من عمرها، تدرس في مكتبة بجامعة أجنبية؛ أشبه بشيء دخيل. كانت تأتي دائمًا اللحظة التي كنت أفكر في أن أطلب الكثير منها؛ فأترك الوقت يمر دون جدوى حتى لا أزعجها. كنت أستمتع بمراقبة ردود أفعالها. كنت أفهم من نظراتها مَن من الأساتذة الذين يأتون لتقديم الطلبات يستحق الاحترام أو المودة وأيهم -على النقيض- ينبغي اعتباره عصبيًا، ثائرًا، متغطرسًا، سريع التأثر، لحوحًا، مزعجًا. وما أخبرني بذلك الفروق الطفيفة في نظراتها الصائبة للغاية وأيضًا في وضع كانت تتخذه مع نبرة صوت كنت قد تعلمت التعرف عليه. كانت إنسانة وديعة. وغالبًا ما كانت تسيطر على الأساتذة بسبب جمالها، وكان من الواضح انجذابهم إليها، لكن كانت الابتسامة تتوقف على فمها أمام سلوكيات لا تفهمها، وأحيانًا كانت تتخذ نظرة ونبرات توسُّل. كان أستاذ الأدب الروسي، الأكثر ترددًا على القسم (كان لدي انطباع بأن الآخرين عملاء، أناس في حالة من التوتر العصبي الدائم أو بشكل عابر)، كان يأتي إلى المكتبة كل يوم، بانتظام، وبسلوكه المتنوع لطبيعته الانفعالية. كان رجلًا مندفعًا لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، وفي حالة من التوتر العصبي. كانت هناك أيام يندفع نحو أي شخص يقع في طريقه، يرفع نبرة صوته، وتصبح كلماته عنيفة حادة مهينة لمن تُوجه إليه لدرجة أنها كانت تُشعُره كأنه حشرة؛ لم يكن هناك سبيل للمحافظة على كرامة أحدهم إلا إذا صرخ وسب بصوت أعلى منه؛ لكن لا أحد، ولا أعرف السبب، كان يفعل ذلك (من الواضح أنه لم يكن أحد منا ساذجًا لدرجة أن يرد على مثل هذا «الجلاد» كما يشاء الله). عند ظهوره، كان الهدوء في المكتبة يتحول إلى توتر. كان يُلقِّب إستر «بسيدتي».

«سيدتي، أيمكنك أن تتعاملي معي ببعض الاهتمام...»، وفي تلك الأثناء كان يتكئ على الطاولة بقبضة يده المقفلة، يتلفت بصرامة، لا يكاد يسيطر، لكن بشيء من التباهي، على السخط الذي كان يضمره إزاء من هم بالخارج، وقد تشاجر معهم منذ قليل. ونحن هناك، في المكتبة، لا نحرك ساكنًا، كان علينا على أي حال أن نأخذ بعين الاعتبار الشجار الذي كان يمكن أن يفتعله بطول الممرات، وحالة البؤس والشقاء التي كان عليه أن يواجهها. وعلى هذا النحو كان يثبت وجوده في المكان الخاص بنا. أشبه بالعملاق "بروميثيوس»، لكن دون طاقة، مع غضب العصر الحديث الحاد المُرهِق. له هيئة مسرحية بعض الشيء. كانت إستير مهتمة جدًا به وصبورة معه؛ فكانت تساعده بطريقتها الخاصة. وفي نهاية تلك الأيام كان يعود إليها دائمًا، شاحبًا وأكمام قميصه مثنية. في تلك الساعة كانت المكتبة شبه خالية، وكانت المصابيح الوحيدة المضاءة في الأماكن المشغولة وكان هناك الكثير من التركيز، كنت أمكث حتى ميعاد الغلق، وأستفيد من فترة الراحة المتاحة كلها؛ ومن ناحية أخرى، من أفضل الأوقات بالنسبة لي عندما يخيم الظلام في الخارج كانت من أكثر الحالات التي تؤتي ثمارها في دراستي. وكانت المكتبة تفرغ تدريجيًا من المترددين، ويذهب معهم حفيف الأوراق، والأحاديث، والشرود الذي كان يهيمن دائمًا على الطالبات الشابات، اللاتي لم ينضجن بعد، وكان العديد منهن يكتفين بتقليد من يدرس ويضحكن على أي شيء. كان يروق لي أن أراقبهن، أتصيد أخطاءهن؛ فالتسامح الذي يملؤني لا يمتد لمثل هذا السلوك. كاتيا كانت مختلفة، تذهب مباشرة تجاه الهدف.

قبل أيام قليلة عرضت علي زميلة لي في معهد كييف قراءة برنامج لمؤتمر علمي. زوجها طبيب وكان هذا البرنامج على مكتبه.

أخبرني: "هنا يوجد شيء يهمك". كان الأمر يتعلق بمؤتمر حول غسيل الكلى، آفاق جديدة للبحث وتطبيقاته، شيء من هذا القبيل. لا أتذكر العنوان جيدًا. في دفتر مذكرات سجلت فقط المكان، قاعة المؤتمرات بجامعة خاركيف، اليوم والساعة لورقة كاتيا البحثية، لا أعرف حتى ماذا سيتناول. ولما قرأت اسمها أخذ قلبي ينبض بسرعة ولم أكن أعرف ماذا أفعل. على أي حال، فكرت على الفور في الذهاب. في تلك اللحظة كنت متأكدة من ذلك؛ وهذا ما أخبرت به أيضًا زميلتي: "سأذهب، وإن لم ترد التحدث معي". لكني الآن لا أدري ما إذا كان هذا أمرًا جيدًا؛

فهي لم ترَني منذ وقت طويل وإن تعرفت عليَ وسط الحضور قد ترتبك؛ فهي فولاذية، لكنها ستظل دائمًا إنسانة وأنا أمها. لا أريد أن أكون عقبة لها في هذه المناسبة المهمة للغاية. تبلغ من العمر فقط ثلاثة وعشرين عامًا ويطلُّ اسمها الآن بين الباحثين؛ ويبدو أن الآخرين جميعهم من الأسماء البارزة: شخصيات لامعة، واستشاريون، وأساتذة. وبالتأكيد أتوق إلى الذهاب، لأراها أخيرًا، وأستمع إليها، وأستشعر ما تستفيده من ذكائها. لم أعد أعرف تقريبًا أي شيء عنها. ولما خرجت زميلتي من الحجرة (قالت لي: "لا بد أن تفخري بها"، على الرغم من أنها تعرف كل شيء عني وعن كاتيا)، بكيت بكاءً لا ينقطع.

حسنًا، وبالعودة إلى الفترة التي أمضيتها في ماتشيراتا، قرب المساء كان دي فيليتشي في فترة راحته المعتادة في المكتبة؛ يستلقي على مقعد، متباعد الساقين.

"سيدتي العزيزة"، قال بنبرة مختلفة عن تلك التي كان يخاطبها بها أثناء النهار (الآن لا أستطيع تحديد سجل لصوته؛ فأتذكر اختلافًا في النبرات: مروءة، سخرية، تهكم، غضب، وهن؛ ومع ذلك، صوت أرستقراطي دائمًا، وفي المجمل جميل، واضح؛ وأحيانًا خافت قليلًا، يكاد يتلاشى، وخالٍ من نبرات اللهجات. أنهكه الغضب والألم في اليوم الماضي، وجعله أكثر شحوبًا وإرهاقًا عما كان يظهر كالمعتاد. لكنه كان يرغب في التحدث مع إستر، ويعود لطيفًا. كانت تعجبه، من الواضح. "سيدتي العزيزة"، قال لها وأخذ يتحدث وهو مجهد، ويحدق في نقطة فارغة أمامه. لم يتبق له من غضب اليوم كله سوى الإرهاق والفوضى غير المعتادة لملابسه: رابطة العنق المفككة، والسترة المخلوعة، وكان واضحًا أنه يرتاح في تلك الليلة إلى العلاقة الحميمة مع السيدة. كان يبلغ آنذاك من العمر ثمانية وخمسين عامًا؛ كانت رجولته بعيدة كل البعد عن الشيخوخة، لكن بدنيًا كانت محسوسة جدًا.

بعد واقعة اليوم الأول، وعلى الرغم من عدم المبالاة الواضحة، انتابني انطباع بأنه كان يتابع تحركاتي كلها منذ البداية، مثلما يتتبع مالك منزل تحركات حيوان صغير غريب تسلل إلى الحجرات لا يريد قتله. في الواقع، إلى جانب هذا، كان يعتريني شعور آخر، أو بالأحرى أن الإنسانية تهمه، وخاصة الجنس الآخر، بالضبط. على أي حال، ذات يوم توقف أمامي، كان يحمل مجلدين كبيرين تحت ذراعه.

"هل ستفقدين عقلك أنتِ أيضًا يا سيدتي؟". سألني.

"أنا أقوم بإعداد بحث"، أجبته ببعض الارتباك، "أحاول أن أفهم كيف أثر تشيخوف على السرد الإيطالي". أمات اللعاب الجملة في حلقي. وفجأة إذا بالكم الهائل من الكتب، والتجارب الأدبية، والمقالات النقدية، والأحاديث التي لا بد أن دي فيليتشي كان على دراية بها، هذا بالإضافة إلى الحجم الشاسع للمواقف الإنسانية الملموسة وخطورتها، وهذه أيضًا معروفة جيدًا لذلك الرجل شديد الانفعال؛ إذ به يقلص بحثي إلى عمل صغير غير قابل للتحقيق، مجرد، دون دوافع.

أجاب: "أعلم"، ولمعت في عينيه ومضة ساخرة، وكان من الواضح أنها تتعلق باختصاصه مشرفًا وليس بدراستي. لذلك لم تكن لعدم كفاءتي أهمية؛ فأنا أنتمي إلى نطاق الأمور التي يهتم بها وهذا الشأن وحده يثبت وجودي. كنت قد قررت اغتنام الفرصة؛ وتلك النظرة فتحت لي إمكانات للتواصل لم تكن مأمولة.

.IV

في شهر فبراير، عندما بدأت أقوم بتدريس دورة اللغة الروسية وأدبها (الدورة "ب"، لطلاب الفرقة الثانية)، تركت الخدمة في منزل ماريانچيلا وذهبت للعيش في مخزن لمتجر، أمام منزلها تقريبًا. في الفجر، عندما كنت أقوم بتنظيف أرضيات متجر المواد الغذائية، وأقترب من زجاج الواجهة، كنت أستطيع رؤية نوافذ منزلها وضوء "الأباچور" الخافت. كانت ماريانچيلا تستهل يومها بالتدقيق في كل شيء، في الحر وداخل الغرف، حيث كانت تنام جليسة صغيرة لها، حلت محلي على الفور مباشرة. حسنًا، كانت هي ومنزلها مضيافين لي، وأكثر بكثير من مكان الإقامة الجديد. ومع ذلك، فقد ترك لي العمل في السوبر ماركت الصغير فترة الراحة تمامًا كما كان يتطلبه التزامي الجامعي. كان الأمر يتعلق بعمليات النظافة وترتيب سلع المتجر على الرفوف خلال ساعات الإغلاق: في الفجر، وفي المساء بعد العشاء ويوم الأحد. وخلاف ذلك يهتم به صهر صاحبة المتجر وابنتها، ولم يكن لي أي اتصال بهما. كان العمل شاقًا إلى حدٍ كبير -كان يستهلك يديَ ويدمر ظهري- ولكنه كان محدودًا. في المقابل، كان لي سرير في الغرفة الخلفية، وكان عليَ أن أتركها خالية أثناء النهار، وراتب كنت أرسله إلى البيت بانتظام. ونظرًا للظروف والشتاء الرطب الممطر الذي ضاعف أيضًا إحساسي بأن تلك المدينة غير مرغوب فيها، أصبح بيتي الحقيقي حقًا هو مبنى الجامعة. هناك، بين حجرة الحارس ومكتب خالٍ، كانت لي طاولة في غرفة ممر صغيرة، وتملأ سطحها مجموعة كبيرة من الأوراق المتربة التي لم أتجرأ قط على إزالتها؛ فكنت أجلس أمام تلك الطاولة، أعدُ دروسي، أواصل عملية البحث، وأستقبل الطلاب.

في البداية كان الأمر شاقًا. كانت هناك ساعات الشوارع فيها خالية. كنت أتناول الغداء بمفردي، في أحسن الأحوال، حسبما تعودت جالسة على أريكة في ساحة صغيرة أمام الجامعة (لكن في مرحلة ما شعرت بالخجل من ذلك، وبما أن دخول المقهى كان باهظًا جدًا في أغلب الأحوال، لم أكن أتناول وجبة الغداء). قلت لنفسي: "نينا، لديك منزل، ومشاعر دافئة؛ فما الذي تفعلينه هنا؟" لكن ما كان يقيدني تحديدًا بالحاضر هو إحساس بالمسؤولية؛ وكنت أشعر بالحنين إلى أول شقة لنا. ذكريات كانت معدتي تتقلص من الألم عند الاقتراب منها فقط. شقة

مرحلة طفولة كاتيا. كانت تتكون من أربع غرف يدفئها موقد خشبي، مطلية باللون الوردي: حجرتان، وحمام، ومطبخ ونوافذ دون ستائر؛ والأرضية من الخشب الداكن، وبها خدوش كثيرة وانبعاج، لامعة، دافئة. أثاث منظم، أتذكر منه بالتحديد، ما أضفي عليه أهمية، أريكة صلبة، مزهرة، تم شراؤها بعد تسع سنوات من الإقامة في ذلك المنزل (حتى ذلك اليوم كنا نشاهد التلفاز، وكنت قد انتهيت من رضاعة طفلتي، كنا نحتضن بعضنا بعضًا على مقعدي مطبخ "هزاز"، مصنوعين من الفورميكا والصلب). كانت تمتلك تلك الأريكة امرأة عجوز تقطن بالطابق الأول؛ فبعد وفاتها، أقام أقاربها مزادًا صغيرًا، وكنا أنا وزوجي سعيدين جدًا لتمكننا من شرائها، وسرعان ما نقلناها إلى أعلى، صاعدين طوابق المبنى الستة، نحن الاثنان فقط؛ زوجي في الأمام وأنا خلفه، كان يومًا خريفيًا، أحد أجمل فصول الخريف بمدينة كييف؛ ومن خلف النوافذ الطويلة الضيقة التي كانت تضيء الدرج، كنت أرى أشجار الفناء منحنية من شدة الريح التي تطاير الأوراق في دوامات.

"هل ستنجحين؟" سألني زوجي. "أتظنين أنكِ فاعلة؟" كانت الأريكة ثقيلة إلى حدٍّ كبير وكان الدرج ضيقًا. وكاتيا تسبقنا، وهي تقفز؛ وتلتفت لتنظر إلينا.

"هل ستستطيعين يا أمي؟" سألتني هي أيضًا. كانت في الثامنة من عمرها (حدث ذلك في شهر أكتوبر لعيد ميلادي الثلاثين؛ هل كانت الشعلة الأخيرة؟ هل يمكن أن يكون الشباب قد انتهى؟ إذًا ماذا أعيش الآن، وأنا في الخامسة والأربعين؟ هل من الممكن أن يعرف سن النضج الكثير من التغيُّرات، بعد أن مرت المراحل الأولى من الحياة سريعة جدًا، وبهذا الشكل، وفي المجمل، منتظمة؟). كانت كاتيا متحمسة، وتعرقل خطوات والدها.

"هيا يا كاتيا"، كان يقول لها: "لا تقفي بين قدمي"؛ لكنها كانت تصعد بضع درجات وتتوقف مرة أخرى، وترجع إلى الوراء، وهي تحاول وضع يدها الصغيرة تحت الأريكة.

"اتركيها يا كاتيا"، أخذ يقول لها، "تقدمي. تابعي الصعود، من فضلك". في النهاية، ركضت إلى أعلى وأخذت تنظر إلينا من "بسطة" السلم أمام شقتنا، وذراعاها تستندان على "الدرابزين"، وتطلُّ برأسها، جادة، واعية، شغوفة بصورة مفاجئة؛ الوجه الصغير، يترقب في قلق.

"هل ستستطيعين يا أمي؟" لكنها أخذت تسألني بصوت خافت. صغيرتي، معشوقتي، حبيبتي. كانت تلك الأريكة بادرة عظيمة لها، ذات أهمية تاريخية. ولنا جميعًا. كان زوجي متحمسًا لها؛ وأخيرًا أصبح لدينا مكان مريح للجلوس. كان يراجع واجبات كاتيا هناك عندما يعود، في المساء. لم تكن تريدني أن أراهما. كان يتحلى بصبر شديد. الآن أتذكر تحديدًا الظلام والبرد في الخارج، ضجيج حركة المرور المتذبذب، وقعقعة الإطارات ذات السلاسل، وفوق ذلك، عواء الريح. نحن الثلاثة في الحجرة الوحيدة التي كنا نستخدمها غرفة معيشة ومطبخًا. كان زوجي يمسك الكراسة المفتوحة بإحدى اليدين، بعيدًا قليلًا عن عينيه، ويتكئ بظهره على الأريكة وبأحد المرفقين على مسند الذراع. وكان يتخذ هيئة المعلم؛ ويفرك جبينه. وكانت كاتيا تقف عند رأسه. كان لدينا تلك الابنة فقط؛ وحياة أخرى قد انطفأت بداخلي هكذا، دون سبب. كان زوجي ينصت إليها، تطرح أسئلة وتعطي شروحًا؛ فكانت لديها ذاكرة قوية ومجموعة شاملة إلى حدٍّ كبير من المعارف، وإن كانت عامة، تتجرعها مثل الماء؛ وكانت حقًّا تنتقد بشدة، وتتكاسل في الوثوق بنا حول إرشاداتنا في الحياة والسلوكيات التي ينبغي اتباعها؛ لكن موسوعة والدها كانت مقدسة بالنسبة لها. كانا يتأخران دائمًا في الجلوس أمام المائدة بعض الشيء؛ فكنت أجلس قبلهما؛ وأرى صورتهما على الأريكة تنعكس على زجاج النافذة، وتتلاشى أمام ظلام السماء. ولطالما حذرت من أن كل هذا عمل وخيم العاقبة.

٧.

حسنًا، هذا ما حدث: في إحدى مشاجراته المبالغ فيها، أقنع جوليو دي فيليتشي زميلًا له بالتخلي عن التدريس، وكان رجلًا روسيًا على قدر كبير من الثقافة، أرستقراطيًا مجهدًا، وكان يقوم بالتدريس الجامعي لعدة سنوات، وسهوًا من جانبه ترك دي فيليتشي يتولى مسؤولية جميع امتحانات لجنة الالتماسات التي كانت مكتظة بشكل ملحوظ، في يوم كان فيه محمومًا، كما كان يحدث له في كثير من الأحيان. وجاءت النتيجة أنه تم إلغاء تدريس الدورة «ب» ودُعيتُ للتقدم بطلب للحصول على عقد مؤقت. كان دي فيليتشي قد قرأ بضع صفحات من دراستي وكان يجدني أقضي ساعات منكبة على الكتب، وأتحدث الروسية وأعرف أيضًا الإيطالية جيدًا، وهذا ما كان يكفيه. وفي طوفان من الكآبة، وعدم الكفاءة، والتراخي الذي قد يهوي -حسب قوله- بإدارة القسم، رأى أنه يمكن أن يجد موطأ قدم في طوفي الصغيرة. من جانبي، وعلى الرغم من التناقض الداخلي الذي أحدثته بداخلي الإقامة في إيطاليا، قد قبلت هذا الاقتراح مثل هبة من السماء، ولأنني في الحقيقة كنت متعطشة لتعويضات منذ فترة طويلة. لم أتساءل حتى عما إذا كنت سأتمكن من ذلك. كانت لدي ثقة في ذكائي مبالغ فيها ولم يعد يهمني حماقتي، اضطراباتي اللغوية، وثيابي الفقيرة. أثناء العودة إلى كييف للاحتفال بعيد الميلاد الأرثوذكسي (قبل عرض دي فيليتشي، كنت قد خططت لهذه العودة بنية عدم الرحيل مرة أخرى، فكل رحلة كانت طويلة ومكلفة ولم يكن هناك داعٍ لعملية الذهاب والإياب تلك)، وطوال الرحلة كنت أفكر في المحتوى العلمي للدورة ومناهجها: كنت سأتحدث عن أنطون تشيخوف، من المؤكد، بالرجوع إلى المناخ في عصره، وأحدد علاقته بتولستوي، وأوجه المقارنة والاختلاف، ومن ثم سيقرؤون قصصه بالروسية ويقومون بالترجمة، ويعلقون عليها واحدة تلو الأخرى: *"قصة مملة»*، بالتأكيد، ثم *«حياتي»*، *«زوجتي»*، *«قصة رجل مجهول»*، *«السيدة والجرو»*، ولكن أيضًا *«مملكة السيدات»*، *«آلة كمان روتشيلد»* وقصة ألفها تشيخوف في فترة شبابه الأولى حول فتاة تقع في غرام طبيب ينتبه إليها فقط في النهاية، لما أنهكها مرض السل تمامًا؛ إنها إحدى قصصه الأولى، ولم أعد أتذكر ما عنوانها؛ على أي حال، كان سيفيدني في اكتشاف ميلاد كاتب عظيم. لقد قضيت العطلة في حالة من التوتر: لقد كنت بحاجة إلى العودة إلى المكتبة للبحث

عن الكتب التي ستفيدني في تحضير الدروس، وهذا ما جعلني أشعر بالحيوية والقلق. في عيد الميلاد ذاك، اصطحبنا أنا وكاتيا زوجي إلى المنزل وجاء ڤانچا لزيارتنا. تناولنا الڤارينيكي والكُوتيا المطهيين في المنزل، لكن كلًا منا كان بالفعل يسير في طريقه.

VI.

أثناء الأشهر التي قمت فيها بتدريس دورة "ب" في اللغة الروسية وأدبها، أخذت أفكر في أن تلك التجربة يمكن أن تعوض حياتي كلها في السنوات الأخيرة وتأثرت من فكرة أنه يمكن أن تولد بالفعل امرأة قوية، من ضيق ومعاناة كادت تغرق فيهما. تلك الصفحات حول أنطون تشيخوف، على سبيل المثال، ترجع أيضًا إلى تقدير البروفيسور ("ما تكتبينه جيد جدًا"، هذا ما قاله، "قرأت المقالات المنشورة على لوحة الإعلانات وأيضًا هذه الصفحات الأولى عن أنطون تشيخوف... كل ما تكتبينه وراءه، على الأقل، بحث جاد، وعمل طويل من التوثيق... على النقيض، هناك كثيرون، وأكثر بكثير مما يمكن أن تتخيليه، ممن يعتقدون أن الارتجال ممكن، وأن الحدس، إن جاز التعبير، كافٍ...)، جاءت تلك الصفحات القليلة، في ذلك الوقت، لإقناعي ليس فقط بذكائي، بل لتأكيد شيء من الرقي بداخلي. وكل هذا، للمفارقة، كان يستمد قوته من شبح زوجي، ومرضه كان الشاشة السوداء التي انبثق منها ضيائي. صاحبة هذه الدراسة هي امرأة منهكة، انتقلت من رعاية رجل مريض في حالة خطيرة إلى رعاية سيدة عجوز؛ وعلاوة على ذلك، لم تكن تأكل ما يكفيها لوقت طويل وترتدي ثيابًا مستعملة تتركها لها امرأة أخرى.

بالتأكيد، من الأشياء المهمة أيضًا الظروف، الجو، المناخ. عندما تم تدشين الدورة بالجامعة، وبعد حالة الاضطراب في الأسابيع الأولى التي تزامنت مع رطوبة الشتاء القارس ورماديته التي حكيت عنه مسبقًا، تأكد تمامًا في ذلك الحين اهتمام الطلاب (كانوا ينصتون إلي، يستنبطون القيم الإضافية لخطابي، يتناقشون معي)، بعد نحو شهر ونصف، إذًا، منذ بداية الدروس، وفي المدينة بدأت بشائر الربيع. أثناء ساعات منتصف النهار، في الساحة المثلثة أمام مبنى قسم اللغات، كانت تصل شمس حارة بالفعل، يستغلها الطلاب، بين الدروس، مثل السحالي، في مجموعات، يدخنون السجائر، وأنا معهم. كنت أنتظر أن يفرغ فصلي وأنا جالسة على مقعد خشبي ملطخ بالكتابات. كان كل ما يحيط بي رائعًا: السماء زرقاء، الواجهات الرخامية بياضها متلألئ، ونبات البقس شديد الخضرة في أوعية زهور كبيرة، وحركة متعددة الألوان من المارة وطلاب الجامعات وكأنها حفلة. لم أمكث بمفردي قط. في البداية، كان الطلاب يقتربون مني ليسألوني عن أشياء تتعلق

بالنصوص الأدبية والامتحانات والجداول، ثم بعد ذلك كانوا يأتون لمجرد التحدث معي. غالبًا كن فتيات، ودودات، مبتسمات. ومن بين الأكثر اجتهادًا كان هناك أيضًا فتى، يُدعى فرانشيسكو، ما زلت أحافظ على الاتصال به بشكل متقطع. منذ نحو ثلاثة أشهر، أرسل لي مجموعة من قصائده الشعرية، حيث شاركني -مع صديقته، فابيولا، وامرأة أخرى، لا أعرف من هي- في الإهداء. كتب عبارة "إلى فابيولا وإيما ونينا، بإصرار"؛ ولا أعرف السبب. حسنًا، فبعدما أدركت أنه لم ينسني بعد، وبعد مرور سنوات عديدة، كانت فرحة كبيرة بالنسبة لي، لم أشعر بها منذ فترة بعيدة؛ لدرجة أنني أردت أن أخبر كاتيا على الفور. رفعت سماعة الهاتف ثم أعدتها مكانها. وانتابتني رغبة في البكاء على تلك القصائد. كل قصيدة منها تتحدث عنّي بطريقة أو بأخرى. وهنا، ينبغي أن نقول هذا: انفصال مثل هذا لا يحدث فجأة؛ والحدث الأخطر يطلق فقط العنان له، لكن من الواضح أنه كان يتم التحضير له منذ فترة، كان يختمر. فلنعطِ مثالًا توضيحيًا، ذات يوم، قبل عدة سنوات من إقامتي في إيطاليا، كنت أحملها على ساقي. كنا في الريف. رحلة على ضفتي نهر الدنيبر مع والدها وجديها. كانت قد ازدادت طولًا؛ كانت تلمس الأرض بقدميها؛ فكانت ثقيلة، وتضغط عليّ بشدة، وطوال وقت الظهيرة كانت تذهب وتجيء بين ساقي والمساحة الفارغة، كأنما الآخرون، جداها وأبوها، لم يكونوا موجودين أيضًا. في تلك اللحظة كانت تلف ذراعيها حول رقبتي وتضحك، في حالة عصبية.

"أمي"، كانت تقول بنبرة شاكية، تنظر إليّ وتتظاهر بالعبوس، "أمي، أنا أكرهك"، ثم أخذت تضغط على عنقي، وكأنها تخنقني. قبل ساعات قليلة، بعد الغداء مباشرة، أخذت تبكي بلا سبب فجأة؛ فركضت بطول النهر؛ وابتعدت وهي تصيح عليّ: "أنا أكرهك"، وشعرها مموج فوق كتفيها، وساقاها الطويلتان النحيفتان تظهران تحت سروال قصير؛ أشبه بظبي، كائن طبيعي، رقيق عنيف.

"لمَ تعذبينني؟"، سألتها. "ما بالك متوترة هكذا؟". لم أكن أعرف ماذا أقول لها؛ كنت حزينة، متعبة، منزعجة من ثقل جسمها. "ماذا هنالك؟ ماذا حدث لكِ؟ ألستِ بخير هنا معنا؟ انظري الجمال حولنا". كانت هناك، في واقع الأمر، أشجار البلوط ذات الأوراق الرائعة التي تنحدر بطول أخدود ومن ورائها، في الخلفية، سماء تقطعها سحب حمراء، كثيفة، هاربة.

"إنه ذنبك"، أجابتني. "كنتِ دائمًا في حالة اضطراب. ونقلتها إليَ. أنا متوترة لأنكِ كذلك". كانت في الثانية عشرة من عمرها عندما قالت ذلك. لا أدري ما إذا كانوا في سن الثانية عشرة يمكن أن يكونوا شديدي الوضوح والقسوة إلى هذا الحد؟! ليس لدي خبرة عن الأبناء غيرها. لكنها كانت كذلك بالفعل. وعلى أي حال، هناك شيء ينبغي ذكره؛ إنها في ذلك الأسبوع قد رأت دم الحيض لأول مرة.

"أمي، تعالي حالًا"، صاحت من الحمام، وقد حدست حتى قبل أن أراها، عدم إمكانية الإصلاح، إصلاح عنف ما حدث. ثم بعد ذلك، حبست نفسها في غرفتها لمدة يومين وكانت تريدني فقط؛ ففي كل مرة كنت أذهب إليها وأجلس على سريرها، كانت تنهض وتعانقني.

"هذا سيئ. سيصبح كل شيء سيئًا"، أخذت تقول، بين دموعها، وأنا أؤكد لها أن كل شيء جميل وسيسير -على النقيض- على ما يرام. كنت أضمها إليَ وأحسست بثدييها الصغير قد نضج. كنت أضع أمام عيني، مثبتًا على الحائط، أحد رسوماتها، "مانيكان" الحياكة يهرب ويسد أذنيه وتطارده نغمات موسيقية، وكنت أحدث نفسي أنه من بين ميولها، سواء الفن أو الرياضيات، ربما سيكون من الأفضل إن استمرت في الثانية؛ من الأفضل ألا أنبش كثيرًا، كنت أقول لنفسي، لكن الآن لم أعد أدري... لقد صارت شابة قاسية، قاسية جدًا.

"هي من أنجبتك. كنت بالفعل هكذا منذ اليوم الثالث من عمرك. والدتك لا دخل لها"، قال لها والدها، وكان يجلس بالقرب منا، هناك، أمام أشجار البلوط، وقد أصبغته الشمس بحمرتها، هادئًا مثل البحيرة؛ لكنني كنت أعلم أنه كان يتفق في داخله مع كلام ابنته.

ولكن الأشياء عندما يكون المرء بعيدًا، أعني بعيدًا كليًا، أي بالروح والجسد، تغير وجهها. غالبًا ما كان دي فيليتشي يأتي أيضًا إلى الميدان الصغير، ليدخن سيجارة إلى جواري.

"هل تستمتعين بالشمس، سيدتي؟"، قال لي وجلس، وساقاه ملفوفتان الواحدة فوق الأخرى، يدخن. كان يُسرُّ هو أيضًا بالتحدث مع الطلاب. سرعان ما اتخذ نبرته التهكمية، الساخرة. "أريد أن أريق دماءكم. من لم يستعد من الأفضل ألا يأتي. ومن استعد يأتي مرتجفًا"، كان يتحدث وهو يسحب نفخة من السيجارة، ويرمي رأسه

إلى الوراء. "... وهذه السيدة، الأستاذة التي بجواري، يجب أن تتعلم مني. لا توجد روح الشفقة. أنا أعرفهن، هذا النوع من النساء؛ كلهن كالدجاجات..." في الواقع، كانت الامتحانات، في كل مرة، مجزرة؛ كانت دائمًا تنتهي ببكاء، تهديد بالإدانة، شجار. وفي كل مرة رسوب، كان يبدو متعنتًا. كان لا يسمح بالالتماسات. لكن في تلك اللحظات، في الشمس، كانت الطالبات يضحكن. كن يدافعن عن حقوقهن في مرح، ويشعلن السجائر. كان البروفيسور يحب أن تلتف حوله الفتيات؛ كان واضحًا. كان يستمتع برؤيتهن في كل مكان حوله، وهن واقفات أمام أريكة الحديقة، بالچينز الممزق، والقمصان الضيقة، والأثداء المنتفخة، والعيون العذبة؛ فبعضهن كن مثيرات للغاية. وكان يظهر عليه الرضا والسرور.

"لن تموتي، لن يحدث لكِ شيء على الإطلاق، فبدلًا من خمس ساعات في اليوم، ستدرسين عشرًا متتالية"، كان يقول بنبرة مسرحية.

"أنا لا أعيش فقط من أجل الجامعة".

"لأي سبب من الأسباب التي تعيشين من أجلها، فالأولوية لامتحاني. أريد طلابًا مستعدين. أنا لا أربي دجاجًا". كان زيه دائمًا رماديًا، يرتدي قمصانًا سماوية اللون. كان يجلس مستلقيًا على أريكة الحديقة لبعض الوقت. على أي حال، كنت أشعر أن اهتمامه، وحيويته، والرغبة في أن يكون حاذًا، كانت موجهة إليّ تحديدًا: في ذلك الوقت كنت أنا المرأة الوحيدة التي يمكن، نظرًا لعمرها وظروفها، أن تستوعب ذلك حقًا.

وعلى الرغم من ذلك، كان يريدني أن أشاركه في حجرته. كان قد وضع مكتبًا إلى جوار مكتبه. "تعالي من تلك الحجرة الصغيرة". كانت حجرة مكتبه مضاءة بشكل خافت، والمصاريع دائمًا مغلقة، وبالكاد يصل الضوء الطبيعي إليها، وكان مصباح الطاولة فقط مضاء، ولكن بشكل عام كانت رحبة؛ وتفوح منها رائحة الدخان والجلد. مثل تلك الرائحة، كانت شخصية البروفيسور تغزو المكان كله، متوترة، مركبة، جذابة. كان الخروج إلى المكتبة أو إلقاء المحاضرات مصدر ارتياح بالنسبة لي. في قاعة المحاضرات، قبل كل شيء، كنت أشعر بأنني في حالة جيدة لم أكن لأتخيلها من قبل. سرعان ما أحسست بالراحة. وفتحت دفتر ملاحظاتي.

"أين توقفنا؟ هنا، نعم، في نهاية الثمانينيات، نستأنف حديثنا، نقطة تحوّل

جوهرية، هي النقطة التي تصل فيها تقنية السرد عند تشيخوف إلى مرحلة النضج، وفي بعض القصص، تأخذ هذه الخاصة الأصيلة في السرد دون الحبكة..." في الحقيقة لم أكن بحاجة إلى متابعة ما أعددته. لم يكن من الصعب عليّ التحدث. فعلى الرغم من أن المحاضرة في هاتين الساعتين كانت تستوجب مهاراتي وقوتي كاملة، فإن العمل التحضيري المسبق كان عند إعادته لا ينتسب إلى شخصٍ بعينه تقريبًا. "لم يفلح أحد في إعادة بناء هذا الشكل السردي، وما وجد ما هو إلا نسخ باهتة فقط. دعونا نمعن النظر في بنية السرد للقصة الطويلة *ثلاث سنوات*، في الواقع، نحن سنتتبع تفكيك بنية السرد في القصة، التي تتخذ، في تطور أحداثها، عنصر المفاجأة نفسه لمسار الحياة بداخل أحد أجزائها، ثلاث سنوات... حسنًا، كريسبياني، هل نمت على أوراق الغار(1)، ليلة البارحة؟ حقًا كانت مداخلته ممتعة بالأمس... حقًا..." (كان ألبرتو كريسبياني شابًا ذكيًا، دقيقًا، يجلس دائمًا في الصف الأول؛ مهذبًا، مجادلًا، قادرًا على ملاحظات ثاقبة للغاية). "أعترف أنني عندما أعد الدروس أسأل نفسي، في كل مرة: "كيف سينهي كريسبياني هذه الأطروحة؟" كان الطلاب يضحكون؛ والشاب يعتدل على المقعد إلى جانبه قليلًا، يداعب لحيته، ويبتسم. كان سهلًا أن أمزح، أضفي آراءً وانفعالات؛ لأنني كنت واثقة من كل ما كنت أقوله وسأقوله؛ فقد كنت أتبع مسارًا واضحًا محددًا. الآن، على النقيض، في دروسي القصيرة البسيطة، هنا في معهد اللغة والثقافة الروسية، لا أدري أبدًا ما سأقوله بالتحديد؛ فأعهد إلى ذكريات قديمة، ولقول الحق، تخونني أحيانًا؛ منذ وقت مضى كان عليّ أن أتسلق المرايا لأتذكر حادثة في تاريخ السوفيت، قمت بتصفح تدويناتي، تحول وجهي إلى اللون القرمزي، غيرت الحديث، وتذكرت حدثًا مماثلًا؛ فتظاهرت مجموعة صغيرة مكونة من الإيطاليين والكنديين في الفصل بأن شيئًا لم يحدث. لكن في ذلك الوقت، لم يكن لدي أي تردد. "في القصة *ثلاث سنوات*، يكون الحدث له قيمة في حد ذاته وليس كدوره في الحبكة الدرامية؛ كل شيء طبيعي جدًا وكأن الحياة تحكي عن نفسها...".

بعدما اكتسبت محاضراتي الثقة والمزاح والدفء شيئًا فشيئًا، أصبح عمل أنطون تشيخوف الأدبي واضحًا مهضومًا خفيفًا. كان الطلاب يستمتعون به، وكان حديثي كاملًا يحتوي على قيم جوهرية وملاحظات فنية تهدف إلى إفساح المجال لتفسيرات أكثر تنوعًا، لكنهم لم يقفوا على المعنى، وما كانوا ليستنبطونه أبدًا.

كان الأمر يتعلق تحديدًا بحديث ثانوي، موازٍ بطبيعته. بالتأكيد، كان من الأفضل قراءة القصص والسكوت، تمامًا كما حدث لي، فقد قرأت تشيخوف في أكثر أوقات حياتي هدوءًا. أقرأ وأترجم: "*كان الظلام لا يزال يرخي سدوله، ولكن كانت الأنوار في المنازل مضاءة هنا وهناك، وفي نهاية الشارع، ومن خلف الثكنات، كان القمر يطلّ بضوئه الشاحب. كان لابتيف يجلس عند الباب وينتظر انتهاء الخدمة الليلية في كنيسة القديسين بطرس وبولس...*" أو، مرة أخرى، أقرأ معهم: "*كانت الحياة تسير كالمعتاد، يومًا بعد يوم، دون أن تعد بأي شيء فريد. لقد انتهى الموسم المسرحي، وبدأت بشائر الحرّ...*"؛ وأنوّه لهم فقط على إيقاع التعبير الروسي "*إيزو دنياڤ دين*»، أي «يومًا بعد يوم»؛ وأسكت. نعم. كانت هذه أفضل وسيلة لجذبهم إلى *ثلاث سنوات*، وعلى أي حال لم أعد أقلق كثيرًا. كنت أجمع بملء يدي مؤشرات الاهتمام والتقدير.

"أنتِ تفسدين الطلاب"، قال لي دي فيليتشي ذات يوم، وهو يعترض طريقي عند مغادرتي الفصل. كنت أسند بالكاد مع الكتب مزهرية من ورود الكاميليا تغطي نصف وجهي؛ هدية منهم بمناسبة حلول الربيع.

"هم الذين يفسدونني"، أجبته في سعادة غامرة.

في بعض الأمسيات أصبحت الخصوصية في الحجرة التي كنت أتقاسمها مع دي فيليتشي تعذبني. في تلك الساعة بالقسم، كنا نبقى نحن الاثنتان، أنا وإستير، وعدد قليل من الآخرين. ومن ناحية أخرى، لم يكن لدي مكان آخر أذهب إليه حتى وقت إغلاق المتاجر. كان بإمكاني التنزه بطول أسوار المدينة، لكن كان لا بد في كل مرة، أن أعدّ المحاضرة لليوم التالي. وفي أيام الطقس الجميل، كانت انعكاسات الغروب المسائية الساخنة تدخل في الحجرة وأصوات المساء الدافئة مع الأشخاص الأثرياء، وهم يتجولون في شوارع المدينة الرئيسة. فإذا ما كنت بمفردي، أجلس على أريكة من الجلد المبطن، مريحة للغاية، كنت أعيش لحظات من الرفاهية لا تنتهي وما عدت إلى مخزن المتجر لأي سبب من الأسباب... لو كان باستطاعتي لنمت هناك، مستلقية بهدوء على الأرض. كان يحدث، في واقع الأمر، أنه في ذلك الوقت كان دي فيليتشي يتوقف في مكتب زملاء له ما زالوا موجودين. ومن ثم، كانت تروق له الدردشة، فقد كانت جزءًا من إنسانيته. لكن،

بالطبع، كان موضوع المناقشة الوحيد هو الجامعة. عندما لم تكن لديه مطالب صارمة، وقتها يصبح موقفه، بشكل عام، قاسيًا قاطعًا غير قابل للمجادلة.

"يريد العميد منا أن نأخذ بعين الاعتبار استقالة المدير، التي فرضها. وهذا غير منطقي. نحن من انتخبناه. كانت الأمور تسير معنا على ما يرام (بل كان يتعامل معكم بشكل جيد؛ وبالنسبة لي هذا الرجل مطاطيَ). ومع ذلك، لا يمكننا مناقشة الاستقالة. علينا أن نتخذ موقفًا. هذه ديكتاتورية".

"حسنًا، أيها الزميل العزيز، استمع إليَ جيدًا. ما معنى نتخذ موقفًا؟ لا ينبغي مناقشة الأمر. وإذا لم يناقش المجلس قرارًا كهذا، فهذا يعني أن المجلس لم تعد لديه أي سلطة فعلية في اتخاذ القرار... الخطأ يرجع إليك أيضًا، زميلي العزيز، فأنت من انتخبته. كنت تريد باحثًا؟ وقد أعطاه لك. لكن الآن اصطف بين العملاء... ."

"لا، فلتسمعني، اتخاذ موقف يعني أن القرار قد تم اتخاذه بالفعل من أعلى...". كان يستمتع باستكشاف الجانب الضعيف الفاسد الغامض لألعاب السلطة التي كانت تترأس انتخابات المناصب العليا، والمسابقات المعدة للأساتذة والباحثين، والبحث عن مصادر التمويل والاستحواذ عليها ...

لكن عاجلاً أم آجلاً كان سيذهب عند إستير، ويستلقي على المقعد أمام طاولتها. وعندما كنت أراهما وأنا أمرُ، هي في طلتها المعتدلة البريئة، وهو بمظهره المُرهق المخادع، كان الأمر يبدو كأنما أوقعت بهما، وكما لو كان يحتفظ لها بشيء يخصني الآن.

---

(1)- تعبير بالإيطالية يقصد به يركن إلى نجاحه.

VII.

لكن وقع بيني وبين دي فيليتشي حدث واحد فقط من الثقة الحقيقية قبل وفاة زوجي. كانت أمسية في شهر أبريل. في الشهر الثالث، تحديدًا، من تاريخ العقد. كنت قد قمت بدورة استدراكية: محاضرة حول قصة *"حياتي"*. كنت في منتهى الرضا، ومن الواضح أن طلابي كانوا كذلك أيضًا، حيث لحقت بي فتاة عند مدخل حجرة المكتب، شاحبة الوجه جميلة - وفي نظرتها المتسعة الواضحة جدًا، استطعت أن ألتقط بالفعل شغفًا، إرادة عنيدة للفهم، وإعجابًا.

"أستطيع أن أمسك بالأشياء الجميلة في حياتي في هذه اليد"، قالت لي وهي تغلق أصابعها أمام عيني، "وأحدها هو محاضرتك. نعم، تابعتك لأشكرك...". كان أنفها كبيرًا بعض الشيء ومائلًا، لكن عينيها جذابتان حقًا في لمعانهما المدهش. وتابعت قائلة: "كنت أريد أن أسألك أيضًا، إذا كان من الممكن أن تتابعي رسالتي، أود أن أعد بحثًا عن تشيخوف، ربما بعض الملاحظات حول *"جزيرة سخالين"*، وحول فرضية قصة غير مكتوبة، فأنا مهتمة بإنسانية تشيخوف... وانشغاله بمعاناة الإنسان... ."

"لمَ الأشياء الجميلة في حياتك قليلة على هذا النحو؟"، سألتها، لكن بما أنه كان من المحتمل أن يسمعنا دي فيليتشي، امتنعت عن متابعة الاهتمام بشؤون الفتاة الخاصة، جاء في مخيلتي أن هذا الأسلوب لا يروق له على الإطلاق. "على كلٍ، لا أدري بما أجيب على أطروحتك؛ يسرني كثيرًا، فأنا مهتمة أيضًا بتشيخوف في *"سخالين"*، يهمني تحديدًا لأنه لم تولد قصة مهمة من كل تلك الملاحظات..."، سرعان ما تابعت قائلة: "لكن لدي عقد قصير الأجل ولن أستطيع أن أبقى طويلًا في إيطاليا...". كان دي فيليتشي يجلس مستلقيًا على ظهر الأريكة، والضوء يتسرب عبر المصاريع المغلقة؛ ومن الغريب أن مصباح الطاولة الخاصة به كان مطفأ.

«إذا أخذتِ رسالة، فسيتعين عليكِ أن تلتزمي بالبقاء»، قال لي باقتضاب. ثم التفت إلى الفتاة قائلًا: «اختاري موضوعًا مع الأستاذة، ثم إذا كانت هناك مشاكل، يمكنك مناقشة الأطروحة معي»، قال بحسم، «...فقط، أطلب منكِ تفضلًا أن تتجنبي الإدلاء ببعض التصريحات في حضوري... أجد ما قلته حماقة. تبلغين من العمر عشرين عامًا وتؤكدين أنكِ قادرة على الإمساك بالأشياء الجميلة في

حياتك بيدٍ واحدة. هذا هراء. اصنعي لي معروفًا. ألا ترغبين في الظهور كمسكينة. حقيقة جسمك سليم، وبمفرده، يفلت من القدرة على السيطرة... ثم تغلبي على بعض أشكال الإعجاب المبالغ فيه. في غضون سنوات قليلة ستندمين من تمجيدك هذا، وستجدينه طفوليًا؛ وحتى أحاديث هذه الأستاذة الماهرة للغاية ستبدو لكِ بلا معنى مملة أمام بعض الأمور التي ستحدث لكِ: أن تصبحي امرأة، وتحملي، وتنجبي أطفالًا..". كانت الفتاة تنظر إليه باهتمام، وحسم، وانزعاج.

"إذًا هل ستتمكن الأستاذة من متابعتي؟" سألت بإصرار.

"نعم"، أومأ دي فيليتشي برأسه، "لكن تعالي في يوم آخر لنتحدث في الأمر".

"إنك لست على ما يرام، أليس كذلك؟"، سألته بعدما انصرفت الفتاة. كان شاحبًا، حقًا، وعيناه لامعتان.

"أعاني من الحمى"، أجابني، "كنت أنتظر فقط لأطلب منكِ أن تصطحبيني إلى المنزل. أصبت بالدوار ولا أريد أن أقود السيارة. هل تستطيعين قيادة سيارتي؟".

"هل ستحتاج إلى طبيب؟"، سألته.

"أنا أعرف ما أحتاج إليه. في المنزل لدي كل ما يلزم. يكفي أن تأتي معي إلى الباب، ثم يمكنك أن تستقلّي الحافلة للعودة". نهض في عناء، أخذ حقيبته وغادرنا حجرة المكتب. هبط الدرج ووصل إلى السيارة مثل إرهاق رجل عجوز ووهنه، دون التقاط أنفاسه. كنت أسير إلى جانبه قريبة منه قدر المستطاع لكي أتمكن من إسناده عند الحاجة. دخل السيارة، أسند رأسه وأغمض عينيه. كانت يداه الهيكليتان البيضاوان المنسدلتان على ساقيه خاملتين؛ وبدا بنطاله خاويًا. وجسمه كله، دون الشحنة الهيستيرية المعتادة، يدفع بالتفكير في المرض والهلاك.

"إذًا.." استأنف فور مغادرتنا، وبصوت خافت، "من حقك ومن واجبك، بموجب العقد، متابعة الأبحاث. المشكلة، كما قلت لكِ، هي فترة إقامتك في إيطاليا؛ لأن الفتاة ستضطر إلى إنهاء دوراتها وامتحاناتها وربما تعدُّ البحث لمدة تصل إلى عام، أو عامين. لا أدري أيضًا إلى متى سيمكنك البقاء، ومن ناحية أخرى ليس لدي حتى إمكانية أن أضمن لكِ تجديد العقد... على أي حال، ونظرًا لمصلحة الفتاة، يمكنك إعداد المشروع البحثي معها. سخالين أو غيره من الأعمال حسبما تريد هي.

سخالين، إن كنتِ مهتمة به. لكن فليكن، بالتأكيد، دراسة علمية. ومن المحتمل، وإن كان ذلك مع خيبة أمل كبيرة لدى الطالبة، في مرحلة معينة سوف أتدخل بنفسي".

"سأفعل كل ما قلته"، أجبته، "لكنك الآن مريض ولا أعتقد أنه من المناسب لك أن تظل بمفردك. أفضل أن أكون في خدمتك هذا المساء وربما الليلة أيضًا، إن أذنت لي. يمكنني الاتصال بصاحبة المتجر. المهم أن أكون هناك غدًا عند الفجر لمسح الأرضية وتنظيف ثلاجة العرض...".

"تنظيف ثلاجة العرض"، كررها دي فيليتشي بنصف ابتسامة.

"لا أريد أن أتركك، أفضل البقاء إلى جوارك..."، قلت. في تلك الأثناء، وصلنا شارع "الرابع من نوفمبر"، حيث يقع مسكنه: شقة علوية في مبنى يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر في إحدى الأحياء التاريخية بالمدينة (عدة مرات، وأنا أمرُّ في المساء، في جولاتي المشردة، كنت أمدُّ رقبتي لأرى ما إذا كان مصباح النافذة مضاءً وكنت أشعر بالرغبة في الصعود).

"لكن ألا تدرين عدد الفتيات اللائي يأتين إليّ؟ ألم يخبرنك؟ ألم يقلن لك إنني غير أمين رجل يجب الابتعاد عنه ليلًا؟"، تحدث بنبرة ساخرة منهكة. وأضاف: "اتركي السيارة هنا أمامك"، وهو يرفع يده بالكاد ليريني مقعدًا.

"لا أعرف شيئًا وهذا ليس مهمًّا بالنسبة لي"، أجبته وأنا أركن السيارة؛ ثم توقفت لأنظر إليه. أصبح رمادي اللون وبشرته، من جانب الوجه، سميكة، عجوز. واستأنفت: "وعلى كلٍّ، أنت الآن مريض ولا يمكنك أن تبقى بمفردك."

"هذا ليس من شأنك. ها قد أتممتِ مهمتك بعد أن اصطحبتني. ابقي بعيدة عن تلك الشقة"، قال لي وهو يهبط. وعندئذ نزلت أنا أيضًا، أغلقت السيارة وأعطيته المفتاح، كان الطريق في تلك اللحظة خاليًا وكان المساء جميلًا جدًا، دافئًا، مضيئًا مع بعض الريح الخفيفة.

"غدًا، على الأرجح، لن أحضر إلى القسم. أرجوك إبلاغ الطلاب وشرح أسباب غيابي"، هذا ما قاله لي. "أتعرفين ما سأفكر به صباح الغد؟"، أضاف بشكل مفاجئ، وهو ينظر إليّ في سخرية. "هل تعلمين، سيدتي العزيزة، ما سأفكر فيه آسفًا؟ بالضبط ما أفكر به كل يوم أحد. يوم من دون نينا، سأفكر بيني وبين نفسي".

عدت بعد تناول العشاء. أتى ليفتح لي الباب وذهب ليستلقي مرة أخرى. لم يكن قد غير ملابسه بعد ولم يأكل شيئًا. على الرغم من حالة الإعياء بدا سعيدًا برؤيتي، فقد رحب بي بابتسامة، ومع ذلك ظل غير مبالٍ؛ فلم تكن لديه القوة، في تلك اللحظة، حتى لرفع كتاب؛ وعلى الرغم من حالته تلك، مستلقيًا، محمومًا، ولم يبقَ شيء تقريبًا من الكبرياء الرسمي والأناقة والهيبة التي كان عليها في القسم، فقد كان ينضح بالفخر. طلب مني أن أعد له الشاي، الشاي فقط، وأن أبحث عن بيچاما نظيفة في خزانة الملابس. أخذت من خزانة كبيرة بيچاما قطنية لونها أزرق سماوي تم كيُّها كما ينبغي (كانت الخزانة غارقة في رائحة الكافور وكل شيء كان مرتبًا ونظيفًا). عندما عدت بالشاي كان قد غير ثيابه واستلقى على السرير، وأخذ يهندم شعره بيدٍ واحدة.

"سيدتي العزيزة، وجودك معي يفاقم وضعي"، قال لي، "لا أحب أن أظهر نفسي لامرأة في حالة مثيرة للشفقة".

"اعتبرني جليسة خاصة لرعايتك، لليلة واحدة. إنها وظيفتي".

"إذًا صرت في حالة رجل عجوز عاجز..."، قال وهو مغمض العينين، "ما اسم السيدة العجوز التي ترعينها؟".

"ماريانچيلا، كانت تُدعى ماريانچيلا".

"هل ماتت؟"، سأل فضحكت. كان سعيدًا، وأيضًا بالنسبة لزوجي كانت متعة لي أن يضحكني. "أتضحكين؟" سألني. "هل أضحكتك؟". تلك الضحكات المفيدة، النادرة جعلته ممتنًا جدًا... لا أدري. أرى أنه علي أن أبدأ من تلك الضحكة لصياغة فكرة للسعادة لمست حياتنا في شارع أنا أكماتوفا. هي سعادة مجزأة، عميقة، وإن جاز التعبير معبرة، أو بهجة. أما البهجة فأدين بها لزوجي في جزء كبير منها وقد كرستها له. لقد تهادينا تلك اللحظات من البهجة؛ وبالأخذ في الاعتبار ما انتهت إليه الأمور، فهي هدية حقًا رائعة لزوجين، على أرفع مستوى.

"لا، كل ما في الأمر أنني لم أعد أعمل لديها"، أجبت دي فيليتشي.

"نعم، هذا صحيح، المتجر، ثلاجة العرض، آلة التقطيع، السكاكين... إذًا علي أن

أعتبر نفسي ماريانچيلا...»، قال مبتسمًا. "فلتتفضلي بالجلوس هنا بالقرب مني". فسحبت أريكة إلى جوار سريره. شرب الشاي وغفا، وظل مغمض العينين لبعض الوقت، لكنني لم أستطع معرفة ما إذا كان نام بالفعل؛ على أي حال، ظل متصلبًا، ووجهه النحيل متجهًا لأعلى. "حسنًا... أرى أنك تستطيعين الانصراف"، قال وهو يفتح عينيه مرة أخرى، "الباراسيتامول بدأ مفعوله يسري. شكرًا جزيلًا، سيدتي".

"إذا لم يضايقك، أفضل البقاء هنا لبعض الوقت. سأنصرف لاحقًا. لا تقلق. فلتنم...".

"أنتِ لا تزعجيني، سأحلم بالملائكة وأنا أغفو معك هنا..."، وأغمض عينيه مرة أخرى. "كان بإمكاني الاتصال بزوجتي. في مثل هذه الظروف، هي دائمًا مستعدة للمجيء، ولديها ميول للتمريض بالصليب الأحمر، مثلك قليلًا..."، استطرد قائلًا: "... لكنها الآن في لندن، مع ابني. ترافقه. ابني الصغير في الثلاثين من عمره... إلى أن يجيء اليوم، أرجو في القريب العاجل، وأرجو ذلك من أجل ابني، اليوم الذي تأتي فيه امرأة شابة وتصرفها بعيدًا".

"لم أكن أعلم أنك متزوج"، قلت له.

"منفصل. منذ عشرين عامًا... لكن عندما أمرض تأتيني، لا تغفل عن الحضور. إنها تهتم بثلاثة أمور: نظام بيتي، وأناقة ملبسي، وصحتي. وصحتي بصفة خاصة. أنتم النساء هكذا، يهيأ إليكن أن لديكن الحاسة السادسة بالنسبة للموت وتجزعن من لا شيء. في الواقع، إذا أمعنتن النظر في الأمر جيدًا، فإن الشعور بالذنب هو ما يجعلكن مرهفات الحس، أيتها النساء العزيزات؛ لأنه إذا ما مات هذا الرجل، من دونكن، وحيدًا مثل الكلب، سيتضح أنكن تملصتن من مسؤولية كبيرة عهدت بها الحياة إليكن... والأبناء في مرحلة معينة لا بد أن ينطلقوا، وينبغي ركلهم إن لم يرغبوا في الانفصال عنكن... هكذا هي الحال، عند تصفية الحسابات ليس لديكن سوى هذا الرجل المسكين تحت مسؤوليتكن الحصرية". في تلك الليلة، حول معنى حديث البروفيسور، الذي كان منذرًا للغاية بالنسبة لي، ساد الإحساس بأن تلك المرأة، التي كنت أتخيلها أنيقة، بسيطة، جميلة، كانت حب حياته كلها. عندما خلد إلى النوم، بقيت هناك لفترة طويلة، أمعنت النظر في الغرفة في الضوء الخافت، بحثًا عن علامات لعاداته؛ لكن كل شيء كان مرتبًا، لم تكن هناك أعقاب السجائر في

المطفأة، ولا كتب أو ملابس ملقاة هنا وهناك. كان حضور تلك المرأة في كل مكان، كانت هي التي تعطي التوجيهات للخادمة، وتشرف على خزانة الملابس، وهي من وضعت المزهريتين الفضيتين الرفيعتين على "الكومودينو"؛ فكنت أتخيل الجسم الممتلئ بعض الشيء لسيدة في الخمسين من عمرها في ثياب أنيقة تتجول في تلك الغرفة كصاحبة البيت، باستعداد طبيعي ومتناغم لإدارة الشؤون المنزلية، ودي فيليتشي جالسًا في فراشه، ينظر إليها ويداه على ساقيه... أما الآن، فتوجد امرأة نحيفة إلى جواره، شقراء، أجنبية، حسنة الملبس، تفتقر إلى أي إحساس بالتفوق في إدارة المنزل، وأكثر شعوزا بالوحدة منه. ويشعر بافتقادها في أيام العطلة. شعلة صغيرة أمام ضوء حياته. لمست صدغه الدافئ المتعرق. داعبته. أرهقني النوم، وخارت قواي من الشعور بالانغلاق، الحميمية، النهاية. تأملت طويلًا صورة جسده المنهك، ورغبت، في قلبي، أن أعانقه. عدت في مساء اليوم التالي. كان يجلس على الأريكة. كانت الخادمة لا تزال هناك وربما بقيت، لم تكن بحاجة إلى أي شيء، وشكرتني على اهتمامي في الليلة السابقة. وفي صباح اليوم التالي، عندما وصلت، كان بالفعل في مكتبه، شاحبًا مشغولًا.

"ألا تعلمين أنها الروح، وفقط الروح وراء مرضي؟"، قال لي جادًا ساخرًا. "إنها الروح التي لا تستسلم. هذا كل شيء. إنها حلاوة الروح عند النهاية".

"حسنًا، هل تشعر بتحسن؟"، سألته.

قال لي: "أنتِ يا نينا، يا من درستِ طويلًا، لم تتعلمي شيئًا من الحتمية والقدرية في الأدب الروسي. إنكِ تنشغلين إلى حدٍ مفرط".

VIII.

عندما مات زوجي، في ليلة أخرى، في شهر مايو، كنت لا أزال في إيطاليا. نادت عليّ صاحبة المنزل من الدرج. كان صوت ڤانچا الناضج العميق هو من أبلغني الخبر. وقال لي إن كاتيا كانت مشغولة في تغطية الجثمان.

"ڤانچا"، صرخت عبر الهاتف، "هل ستسامحونني؟ هل يمكن أن تسامحوني جميعكم؟".

"اهدئي يا نينا"، أجابني، "حاولي أن تنامي الليلة، وغدًا أعلميني إذا كان بوسعك المغادرة وفي أي ساعة آتي إلى المطار لآخذك".

إن صورة كاتيا وهي تكسو جسد والدها، وراحة يديها على البشرة العارية الرخوة التي تخجلها (إلا أن كسوة أحد الوالدين المتوفى هي أيضًا من بين أمور تحدث في الحياة عاجلًا أم آجلًا)، كانت لا تفارقني طوال الليل. كانت كاتيا قد اتصلت بي عبر الهاتف قبل أيام قليلة وأنا أعمل في القسم.

"تدهورت حالة أبي"، قد أخبرتني، "أصيب بأزمة... لم يتبقَّ الكثير من الوقت يا أمي، ربما من الأفضل أن تحضري".

"ماذا يعني ساءت حالته؟"، سألتها وأنا في غاية التوتر (لم يكن دي فيليتشي موجودًا في تلك اللحظة).

"ماذا يعني ذلك؟ ماذا تعتقدين؟ هذا المرض الطويل لا يمكن أن ينتهي هكذا، فجأة...".

"أظن أنه من الأفضل أن تأتي"، قد أصرت.

"لكن كاتيا... ماذا يقول الأطباء؟ اشرحي لي بوضوح... كاتيا، لا يمكن أن ينتهي فجأة، لقد عانينا كثيرًا... مرض طويل مثل هذا".

"افعلي ما تظنين يا أمي"، أجابتني.

اتصلت على الفور بڤانچا. في ذلك الوقت كان لديه بالفعل استوديو صغير خاص به، حيث كان يعاود المرضى دون ترخيص، ويقبل مبالغ صغيرة.

"ڤانچا، أنت رجل"، قلت له، "تستطيع أن تفهمني؛ أقوم ببعض الالتزامات هنا؛ ولدي مسؤوليات... أخبرني كيف حاله، لا أريد أن تفزع كاتيا دون سبب حقيقي. إنها صغيرة جدًا، إنها منهكة... أنت طبيب، يا ڤانچا، أتعتقد أنه عليَ أن أحضر؟ ."

"أنا عائد الآن من دار المسنين. أصيب بأزمة في التنفس، لكنه أفضل الآن"، أخبرني في هدوء، وموضوعية فيما بدا لي. "إنه رجل منتهٍ، لكنه كان كذلك عندما رحلتِ. لا أدري ماذا أقول لكِ أكثر من ذلك. ليس من السهل التكهن بما ستؤول إليه الأمور. سأحاول أن أطلعك بما هو جديد بما في وسعي...".

والآن ماذا عساي أن أقدم لتبرير موقفي؟ لقد كانت كاتيا دائمًا طفلة تحجم عن الثقة في الآخرين، ولكن الثقة في واقع الأمر هي التي كانت ترتكز عليها حياتها وتتطور وتجد وجهتها كأي طفل. لم تكن أمامها أي إمكانية أخرى للاندماج في الحياة. ماذا عساها أن تعرف؟ هي الآن تعرف، تعرف الكثير، تعرف كل شيء، إنها "عالمة"، وفوق ذلك، امرأة تنوي النجاح في مهنتها؛ لكني أتخيل أنها تشعر تمامًا مثل بيت ليس له طابق أول أو بنية تحتية، حتى إنه شُطِر نصفين عند القاعدة، بيت صامد، معدٌ بشكل جيد ومعلق في الهواء. مثل تلك المرة التي جاءت لها الدورة الشهرية الأولى: كانت تريد، تحديدًا ث-ري-د من أمها أن تطمئنها. كان سيف قد اخترق الجزء السفلي من بطنها، وكان على أحد منا أن يؤكد لها أن هذا ليس شرًا، بل إنه شيء طيب. طفلة كانت عندما حدث لها ذلك، لا يزال وجهها ملائكيًا، وجنتاها منتفختان، وتخشى ألا تطول قامتها. "شعرت أنها لن تنمو بعدها". قمت بقياس قامتها عند حلق الباب؛ رفعت قلم الرصاص بزاوية قليلًا بحيث يدخل المؤشر في النسبة المئوية الأعلى. لم أكن أعرف ماذا أخترع لها. ستكبرين، أخذت أقول لها، وبالفعل كبرت. يا إلهي، ماذا بوسعي أن أقدمه لتبرير موقفي؟ لمَ فعلت ذلك؟ كاتيا، بأمانة، لا أدري.

لقد أشرت بالمكالمة الهاتفية إلى دي فيليتشي وقلت له إنه على الأرجح سأضطر إلى السفر إلى كييڤ في أقرب وقت ممكن. في الخارج كانت السماء تمطر بغزارة والغرفة مظلمة ورائحة المطر تفوح منها.

"كم من الوقت تفكرين في البقاء هناك؟"، سألني، بينما كان يعتدل عند طاولته، دون أن ينظر إليَ.

"لا أدري، إنها لم تصل بعد لمرحلة الاحتضار، لكن أي أزمة ربما تكون مميتة"، أجبته.

"كنت أتساءل عما إذا كان من الممكن إعادة المحاضرات في يونيو". لكن لجان التماسات الامتحانات كانت ستبدأ في يونيو، والفرصة الوحيدة المتاحة كانت في فترة ما بعد الظهيرة في الأسبوع الأخير من شهر مايو؛ محاضراتان أو ثلاث لا أكثر.

"ومع ذلك، إن وجدت أسباب لها أولوية أسمى، كما في هذه الحالة...". على أي حال، فقد قررت استكمال ذلك الأسبوع على الأقل والذي يليه، وفي أرجح الاحتمالات كان الوضع سيستمر، فقد كانت هناك أزمات أخرى أسوأ من تلك، حسب تقديري، كان السبب العاطفة التي كنت أحجمها، بل كنت على اقتناع تام بأني أخفيها حتى عن نفسي؛ أن أرحل ربما كان يعني ألا أعود مرة أخرى.

وبناءً عليه، كنت سأرحل يوم السبت بعد اثني عشر يومًا، لكن زوجي توفي بعد ثلاثة أيام، في ليلة الخميس.

.IX

عدت من أوكرانيا في أمسية دافئة عطرة. نزلت من الحافلة عند أسوار المدينة، كانت أشجار الأكاسيا تمتد إلى الطريق وتتلألأ أمام ضوء المصابيح لبياض زهورها، ويهزُّها النسيم شيئًا قليلًا. صعدت تجاه وسط المدينة التاريخي وأنا أجزُ الحقيبة خلفي. كانت الشوارع صفراء خالية، وفي تلك الساعة، كان الناس يستمتعون بوقتهم ما بعد العَشاء في منازلهم. لكن كان بداخلي، ويدور بخلدي، كما هو واضح، صور ومشاهد من الأسى لا مثيل لها ولم أكن أنوي العودة إلى الغرفة الخلفية للمتجر. كانت تلك الغرفة تشبه الكثير من الأماكن التي تركتها، ولم أكن أحتمل الوحدة أكثر من ذلك. كنت قد التقيت بكاتيا فقط لإتمام الإجراءات وأثناء الجنازة. لم نخلد إلى النوم معًا ولا تناولنا الطعام مع بعضنا. كانت تعيش مع ڤانچا، حسبما استطعت فهمه منذ فترة، كانا يتشاركان شقة قديمة استأجرها ڤانچا ليلًا ونهارًا. كانت تكنُ لي بغضًا صامتًا باردًا، وفقط عندما ذهبت لأودعها قبل رحيلي، وطلبت منها بين دموعي أن تخبرني فيما كانت تفكر، عاتبتني على البعد "ليس فقط الجسدي... بل في التفكير والقلب".

"سيستغرق الأمر بعض الوقت"، أخبرني ڤانچا، وهو يرافقني إلى المطار.

"لكن هل أخبرتها يا ڤانچا بمكالمتنا الهاتفية؟"، سألته، "هل قلت لها إنك طمأنتني إلى حدٍّ كبير؟".

"سأخبرها".

"لمَ لم تخبرها على الفور؟ كان شيئًا مهمًا...". كان يقود سيارته بجدية شديدة، يتحدث دون النظر إلي. كان يرتدي حُلة رمادية ورابطة عنق، مثل يوم الجنازة. كان مختلفًا عما كان عليه عندما تركته، لقد رُكِّبت على صورته المهملة المعتادة، صورة رجل معتنٍ بنفسه، وصارت سلطته واضحة، أصبح رجلًا واثقًا من نفسه مستغنيًا مسؤولًا عن مصائر الآخرين.

"سأخبرها، سترين أن الأمور كلها ستستقر. الآن كاتيا مضطربة، إنها واقعة تحت اختبار شديد. لا بد أن تقدري حالتها، لقد أخذت على عاتقها كل العبء في الأشهر الأخيرة الماضية. إلى جانب دراستها، والمنزل..." .

"لكنني كنت هناك من أجلكما. سافرت من أجلها، لتستطيع أن تدرس، وتتزوج... ألم تأخذا هذا في الحسبان؟".

"سأجعلها تتفهم". ذلك الرجل، أصبح الآن، القناة المميزة بيني وبين ابنتي، بل الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي، لكني لم أكن أستطيع الوثوق به.

"أخطأت يا ڤانچا"، قلت له وأنا أخرج من سيارته، "لقد أخطأت". كنت في حالة ذهول من الحزن، والشعور بالذنب، والغضب. ومهما كان نصيبي من الخطأ، فلأول مرة في حياتي لم يكن لدي أي نية للتسامح. ولم يكن يبقى لي كثير في البعد عنهم.

في الحقيقة، كنت قد قررت ألا أعود إلى الغرفة الخلفية وأذهب عند البروفيسور. كان تلك الفكرة تراودني طوال الرحلة. لذا عبرت الأزقة المظلمة التي تقطع وسط المدينة التاريخي، ثم كورسو ماتيوتي، وأخيرًا سلكت الطريق بين أشجار الزيزفون، في اتجاه شارع "الرابع من نوفمبر". وعلى مسافة أكثر من كيلومتر لم أقابل خلالها سوى عدد قليل من المارة، بينما كانت تأتي أصداء الحياة الأسرية من البيوت وقت ما بعد العشاء. وجدت باب المبنى لا يزال مفتوحًا. قرعت الجرس، عرفت نفسي على جهاز الديكتافون ودخلت. تركت حقيبتي في ركن عند المدخل في العتمة. صعدت الدرجات المنخفضة للسلم الكبير، وقد أبلاها الزمن وجلاها. كان دي فيليتشي قد ترك الباب مواربًا. سمعته يتحدث. وفي الصالون، تحديدًا، حيث دعاني للدخول، كان معه شاب يجلس على أريكة أمامه.

"هذه هي السيدة، كما كنت أحكي لك، التي ستعاوننا في التدريس"، قال دي فيليتشي وهو يلتفت إلى الضيف، "والدكتور أيضًا" -أخبرني- "سيعمل معنا؛ أخيرًا لن نكون وحدنا بعد الآن؛ سنحصل على دعم من باحث حقيقي؛ ليس أحد هؤلاء الذين نعرفهم أنا وأنتِ. فلتتفضلي بالجلوس؛ هل جئتِ لتشاركينا بعض الوقت؟". لم ينهض أي منهما عند وصولي.

"لقد عدت من أوكرانيا للتو، ولم أكن أرغب في البقاء بمفردي"، أجبته.

"أتفهم"، عقب دي فيليتشي على إجابتي.

"هل يمكن أن أشرب قليلًا من الويسكي؟"، طلبت منه وأنا أشير إلى زجاجة

الكريستال شبه الفارغة على الطاولة، وفي الوقت نفسه جلست على ركن من أحد المقاعد.

"بالطبع"، أجابني، "ها هو. معذرة لأنّي لم أقدمه لكِ".

"لم تكن هناك فرصة"، أجبته.

"السيدة"، تحدث دي فيليتشي إلى الضيف، وعاد ليجلس قائلًا: "واصلت محاضرات البروفيسور باڤيل أندرييڤيتش كليموڤ؛ مؤلف تاريخ الأدب وأظن أنك تعرفه؛ إلا أن هذا العمل، على أرجح الاحتمالات، خرج من التبني العلمي الجامعي عندما كنت لا تزال في المهد". وفي الأريكة الضخمة المقصبة وردية اللون، البالية بعض الشيء، كان يبدو نحيفًا جدًا. وكانت الغرفة من حوله، حجرة الصالون، مظلمة تفوح منها رائحة الدخان والغبار والمكان المغلق (أين ذهبت الخادمة ومادالينا؟).

"أعرفه بالطبع"، قال الضيف وهو يومئ برأسه ويوارب عينيه. "من المستحيل ألا أعرفه؛ سيبقى مَعْلمًا لأسلوب فكر فريد في التأريخ الأدبي". كان الشاب يلفت الانتباه بسبب هيئته النحيفة. كان لا يتجاوز الثلاثين من عمره، ولكن كان مظهره كله يوحي بانطباع عن الضعف البدني، وضبط النفس، والنضج. "مَعلَم ووثيقة"، أكد دي فيليتشي قائلًا: "باڤيل أندرييڤيتش كليموڤ...". تابع، وأخذ يؤكد، "باحث ممتاز... وعالم ممتاز في فقه اللغة أيضًا؛ يكفي أن نتأمل كتاباته في مجلة سلوڤو، بالتأكيد تعرف تلك المقالات...". أومأ الضيف بنعم مرة أخرى، وما زال يوارب عينيه؛ لكنه لم يضف شيئًا. كان مرفقاه يستندان إلى مسندي الأريكة ويداه بأصابعهما الرفيعة جدًا تتشابكان أمامه. "بالإشارة إلى ما قالوه لي عنه"، تابع دي فيليتشي، "فإنه يفتقر إلى فن الخطابة... لا أدري، سيدتي، إذا ما كنتِ توافقينني؛ فأستاذك لم يكن لديه ملكة التحدث، حسبما وصل إليّ؛ كان يتلعثم، يعرج، ويتابع بصعوبة بالغة. وقصة المقهى معروفة قبل محاضراته. وعلى أي حال، كان باحثًا وأستاذًا جامعيًا يستحق الثناء".

"عندما كان يتحدث، كان يحاول أن يجد التعبير الأمثل... ويبحث، في عناء، في مفرداته اللغوية، عن أنسب الكلمات للتعبير عن أحد المفاهيم والفروق الطفيفة المصاحبة له... كان لا يحب التقريب"، هذا ما حاولت أن أقوله، لكن لم يكن لدي

رغبة في الكلام؛ لأني وجدت، في الحقيقة، أن تلك المحادثة غير طبيعية وليس لها سبب سوى إحراجي بسبب وجودي هناك؛ جليسة للمسنين فقيرة أوكرانية الأصل، أرملة، اتخذ دي فيليتشي تجاهها بعض الالتزامات التي لم يبقَ منها في تلك اللحظة سوى احترام إنساني طفيف مزعج. ولم أكن أريد مواصلة الحديث. وفوق ذلك، كان الحوار غير منطقي. "رافقت زوجي إلى المدفن، وبقيت بمفردي"، هذا ما وددت أن أقوله. لكن فجأة لم يعد لدي أمل، وربما، ولا الرغبة في أن أجد في الأستاذ الأكاديمي الذي يجلس أمامي، تلك الإنسانية المريضة المنحرفة التي قد جذبتني وفي فترة وجيزة خدعتني؛ فبمجرد أن يُنبَذ أحد منا يستغل الجميع ذلك، ويتآمرون لدفعنا دائمًا إلى أسفل، نحو القاع، بين المهمشين.

"وسيادتكم أيضًا، على حد علمي"، قال الضيف، "تتكرسون لإعداد دراسة لغوية بارزة".

"أنهيتها وسلمتها للطباعة قبل نحو شهر تقريبًا. جهد عظيم. عملت لمدة سبع سنوات كاملة؛ حتى تكون العفن تحت ردفي. لا يمكنك أن تتخيل الصعوبات التي واجهها هذا الإصدار".

"لقد قرأت مقالتكم والمعلومات التي قدمتموها حول النقاط الغامضة والمشاكل المختلفة لإعادة البناء النقدي، وأيضًا بسبب اندماج التراكيب والأشكال المختلفة"، عقب الشاب وهو يومئ برأسه.

"معضلة حقيقية".

أشعل دي فيليتشي سيجارة وظل لبعض الوقت في صمت يتأمل التعقيدات التي واجهته في عمله. وكان الشاب أيضًا صامتًا.

"من الأفضل أن أذهب"، قلتُ إذًا وأنا أنهض. "أعتذر لمقاطعتكم... نعم... إن خلفيات هذا الإصدار النقدي تهمني أنا أيضًا... ومرات عديدة، وأنا بالمكتب، وددت أن أسألكم عن عملكم هذا، لكنني لم أتمكن، فدراستي في تاريخ فقه اللغة تعود إلى سنوات عديدة؛ ولم أكن أعلم بالمقال الذي أشار إليه الدكتور. ولا أعرف بالمشاكل التي تمت مناقشتها... الآن، أنا متعبة، وقد قمت برحلة طويلة وغدًا سأضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا لتنظيف المتجر... في الحقيقة جئتُ أيضًا لأعرف إذا ما كانت

هناك أي تغييرات بشأن مواعيدي بالجدول الدراسي". نظر دي فيليتشي إلي لبرهة، نظرة شاخصة، خالية من أي تعبير، وفي نهوضي لفتُ الانتباه لوجودي مرة أخرى مما أزعجه؛ لعله كان مرتبكًا أيضًا من سلوكه معي، لكنه لم يكن ينوي تغييره؛ وخاصة، كما جاء في مخيلتي، أنه كان يرغب في أن أنصرف.

"لا شيء"، أجابني، " الطلاب على علم بأن المحاضرات ستستأنف غدًا، لذا لم يحدث أي تغيير، كل شيء كما كان من قبل"، وأومأ رأسه بابتسامة.

"حسنًا... سأحضر غدًا. أستأذنك، أستاذي"، رددت عليه. "سعدت بمقابلتكم"، ثم قلت للضيف، بنبرة واهنة، وسرت باتجاه المدخل. لكن دي فيليتشي نادى عليَ مرة أخرى.

"سيدتي؟"، نادى عليّ؛ فالتفت؛ "لا شيء"، أضاف قائلًا، وهو يهزُّ رأسه، "لا شيء، لا شيء... كنت أفكر، نعم... في كيفية التصرف بشأن الطاولة في مكتبي، مع حضور الدكتور... لكننا سنتحدث في هذا الأمر غدًا. أمسية سعيدة يا سيدتي".

X.

في اليوم التالي كان عليَ أن أقوم بالمحاضرة في الظهيرة ولم أذهب إلى القسم قبل تلك الساعة. كنت أتجول طوال الصباح في شوارع المدينة التي كانت، على الرغم من كل شيء، جميلة مفعمة بالضياء والنشاط. عندما وصلت، كان دي فيليتشي جالسًا أمام مكتبه، وكانت طاولتي خالية. كانت الحجرة أيضًا مشرقة بشكل غير عادي؛ كان هناك مصراع نصف مفتوح يتوغل من خلاله شعاع من الضوء يغمر مكتبي. قمت بتوجيه التحية له، أخذت النصوص التي أحتاج إليها وذهبت إلى القاعة. في أثناء الدرس أصبت بنوبة، وشعرت بعقدة في حلقي ولم أستطع التحدث.

"كما تعلمون، فقدت زوجي"، أخبرت الطلاب وطلبت الإذن بالخروج للحظة. خارج القاعة بكيت بكاءً حارًا، أثناء دخول الطلاب وخروجهم، وكنت أحاول أن أحتمي في زاوية لإحدى النوافذ، ثم عدت إلى الداخل. "*والكارثة أن هذا الموت في حياة البشرية ليس مصادفة أو حدثًا، إنما هو أمر مشترك*"، كنت أقرأ لهم من ذاكرتي هذه الأقوال من "*دفاتر تشيخوف*"، وأكملت المحاضرة مثل الإنسان الآلي. عند باب الخروج قابلت دي فيليتشي في الممر. كنت مرتبكة؛ وذلك لأنني لم أكن أعرف أين أذهب ولو كان بوسعي اعتبار المكان في حجرة مكتبه ما زال يخصني، وإلى متى. بدا دي فيليتشي وكأنه يقرأ أفكاري.

"حسنًا"، قال لي، "سيدتي، لن يكون الدكتور سالقي باحثًا فعليًا في هذا القسم حتى سبتمبر، لذا لن ينتوي الحضور بشكل منتظم. ومن ثم، في الوقت الحالي، سوف يدعم نفسه بالبحث في المكتبة. وما زال بوسعك استخدام الطاولة في مكتبي طالما كنتِ في حاجة إليها". وجهت الشكر له. "سيدتي!"، نادى علي بينما كنت أبتعد. "وبالنسبة لاستئناف المحاضرات، فيمكنك البدء من الغد". قلت له إني سأُعلِم الطلاب في اليوم التالي. وقضينا فترة الظهيرة كلها جالسين أمام طاولتنا في صمت. لم يكن الوضع جديدًا. سبق أن أمضينا ساعات طويلة على هذا النحو، ساكتين، وظل جزء مني مفتونًا بتلك الحجرة. في الحقيقة، لم أربط بين الأحداث التي وقعت لأسرتي، وما حدث ذلك المساء في منزل البروفيسور، والحياة في القسم. فكل شيء كان له وجود مستقل لبضعة أيام. كان هدف حياتي الوحيد هو

أن أنتظر أن تتصل كاتيا بي، وأسمع صوتها، لكني واصلت إعداد محاضراتي والقيام بها، وجعلت من البروفيسور محوزا لحياتي الجسدية. كان موت زوجي يدفعني إلى ذرف الدموع اليائسة، وخاصة ليلًا، في الحجرة الخلفية وبينما كنت أقوم بتنظيف المتجر -وكان هذا أيضًا أمرًا قائمًا بذاته- كانت تلك الدموع بقايا حية منعزلة في صحراء روحي المذهولة بلا حياة. ومن ثم واصلت حياتي الروتينية في القسم وفي مكتب البروفيسور وإلى جانبه. في يوم من تلك الأيام جاءت أيضًا الفتاة التي تعد بحثًا عن سخالين، ولم أكن رأيتها منذ فترة. أخبرتني أنها وجدت وظيفة في أحد المطاعم لكنها ما زالت تنتوي التخرج مع مرور الوقت. كما أخبرتني أنها قد علمت بوفاة زوجي وأهدتني كتاب قصائد عن الموت من تأليف صديق لها.

"عندما أكون في المطبخ"، أضافت: "وأصنع عجينة التالياتيللي أو التورتيلليني، يبدو لي أن الأدب حقيقة بعيدة، وأرى أن هناك حياتين يوجد في إحداها المطعم، وفي الأخرى أنتِ سيدتي".

.XI

قبل أن أرحل إلى كييف نهائيًا (وقد تم إيجاد حل في شروط تعاقدي للتدريس)، دعاني دي فيليتشي لقضاء يوم معه، في منتجع جبلي، حيث كان يذهب لشراء بعض المنتجات المحلية. كنت أراوغ نفسي، وأنا أفكر في كاتيا، وفي حدادي. أصررت، وأخذت أعدّد مزايا المكان، الهواء، المطبخ، النبيذ الجيد. ذهبنا في يوم شديد الحرارة، في أواخر يونيو. ففي الأسبوع الأخير، ارتفعت درجات الحرارة فوق المعدل الطبيعي وكانت هناك حالة تصحر في القسم. كانت المكاتب، والممرات، والمكتبة خالية، والنوافذ المفتوحة التي كانت ترتطم أمام ضربات مفاجئة من الهواء الذي كان على العكس راكدًا، وكان ضوء السماء معتمًا، كثيفًا، ثابتًا؛ ولولا قدوم الليل، لما أعطى مؤشرات عن وقت النهار. وحجب السديم البانوراما الخلابة لتلك البلدة مرة أخرى. كنت أقضي أوقات النهار، كالمعتاد، في حجرة المكتب، لكن دون أن أفعل شيئًا تقريبًا. ذلك الحزُ المطلق، الذي كان يبدو وكأنه يلفني كليًا في عباءة، والأيام التي مرت دون أن أسمع لكاتيا صوتًا، أدى إلى أن تنفتح أمام روحي أسباب الضيق الشديد، كان الوقت يمرُّ والأحداث تستقر، وتتخذ شكلها القاطع دون رحمة: زوجي، أي إنه مات بتلك الصورة، وفي تلك الظروف، وكاتيا، من جانبها، كانت عازمة على الابتعاد عني، على الأقل لبعض الوقت، لكن إلى متى؟ كنت أعلم أن هذه المواقف خطيرة، وفي وقت ما نعتاد على عدم اعتبار هذه العلاقة حتمية؛ فكل شيء يجعلنا نعتاد على ذلك، ثم إذا تمسك المرء بتحرره بشدة، *"فلا بد أن يكون من السهل، على البشر، التشبث بالعواطف أو حلها أو رفضها"*، كما كتب يوربيديس من قبل، على ما يبدو لي، أو إسخيلوس. ثم إن هناك تفسيرًا آخر: "من لا يبغض أباه وأمه..."، هذا يعني أن هذه العقدة لا بد أن تُحلَ على مر آلاف السنين، مهما سارت الأمور في مصيرها الطيب والسيئ، ولآلاف السنين يظلُّ الأمر ثقيلًا. لكن ماذا بقي؟ ماذا ب-ق-ي؟

اصطحبني دي فيليتشي لتناول الغداء في مطعم يطلُّ على بحيرة لم أعد أتذكر اسمها، وطريق خالٍ، مشمس، يعيد إلى ذاكرتي الطرق بجنوب روسيا التي قطعناها أنا وزوجي بسيارة مستأجرة، في أحد الأيام في الصيف، وقد كنا حديثي العهد بالزواج، والرغبة بداخلنا تتأجج، وكنت بالفعل أنتظر كاتيا بأحشائي، دون أن أدري،

والآن أسافر مع هذا الرجل المتسلط، المسترخي، بقميصه الأزرق، وزوجي لم يعد له وجود، وقد اختفى بجسده وذهبت معه أي إمكانية في القيام بأي شيء معًا بعد وفاته. طوال رحلة الذهاب، لم يسألني دي فيليتشي عن زوجي، ولم يُشِرْ إلى شيء يتعلق بحياتي. كان شديد الاهتمام بأعمال الطريق السريع الذي يمتد موازيًا للطريق الرئيس، وفي بعض المواضع مرتفعًا، ومرهقًا للغاية. وتحدث عن الطريق السريع أيضًا أثناء الغداء مع صاحب المطعم. كانت هناك ثقة بينهما وبين رجل يرتدي مريول الطاهي، الذي جلس على مائدتنا وظل بصحبتنا طوال الوقت؛ ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك أحد غيرنا في الصالون بإضاءته الخافتة، والطاولات المغطاة باللون الأصفر والنوافذ المفتوحة، والمصاريع نصف المغلقة، التي تطلُّ على السماء، لم نكن نرى البحيرة، ومع ذلك كنا نحس بوجود ماء ثابت ساخن ونشعر بحياة الحشرات في حرارة المستنقعات الخانقة الرطبة. كان الطريق السريع على مسافة بضعة كيلومترات، وربما عزل المطعم، لكن المالك لم يكن مهتمًا: كان أبناؤه يعملون، ولديهم عائلات تقطن بعيدًا عن المكان. وحان وقت الراحة. أخذ دي فيليتشي يطرح بعض الأسئلة، وكان مهتمًا، يقظًا؛ وبين الحين والآخر كان يرمقني. أما عن صاحب المطعم، فكان من الواضح أنه يراني عشيقته. فماذا كنت أفعل غير ذلك هناك؟ كان المالك يستطيع بيع المطعم قبل أن يتدهور حاله، ولكن بعد الآن تم تحديد مصيره، هناك طريق سريع على بعد بضعة كيلومترات، وسيصبح طريق البلدة ثانويًا.

"سنصبح ثلاثتنا مهمشين معًا، الطريق والمطعم وأنا". أخذ دي فيليتشي ينصت إلى الرجل باهتمام شديد، وانجذاب، وهو أستاذ في فقه اللغة، وباحث في عمالقة الأدب، ويهتم بالأمور الثانوية في العالم، بانتباه صريح ومودة، ويرتدي قميصًا كُماه مثنيان. ظل وجهه شاحبًا أجوف، لكن بشكل عام كان يبدو معافى؛ وخاصة هدوءه، وقد اختفت منه جميع أشكال الاضطراب العصبي. اشترى صندوقًا من النبيذ ووضعه في صندوق السيارة، وتوقف مرة أخرى للدردشة في الظل المتناثر لموقف السيارات الخانق من الأسفلت الذي كان ينصهر من حرارة الشمس. أشار إليه مالك المطعم إلى النقطة المحددة التي سيمر فيها الطريق السريع، خلف مجموعة من الأشجار. صعد دي فيليتشي على نتوء ليرى بصورة أفضل، وكان يظن، في الواقع، أنه رأى بعض الحواجز، كلا، لم يكن هناك شيء حتى ذلك الحين. لكن

المشروع فقط. كان من المحتمل أن تمر شهور، وربما سنوات. كان المشروع على مسافة عدة كيلومترات. وتوقف على الصخرة المرتفعة لينظر إلى البحيرة فيما وراء سياج غير منتظم شائك.

"ذات مرة أرادت مادالينا أن تستحم فيها"، أخبر صاحب المطعم، بينما كان يهبط ويعود تجاه السيارة. كانت زوجتي غير مسؤولة في ذلك الوقت. وطفلها يصرخ مرارًا وتكرارًا. كان في نوبة هستيرية. وكان لا بد أن أبعده بالقوة. أخذ يصيح: "أمي تغرق. وهي لا تبالي".

ثم سلكنا طريقًا صغيرًا يرتفع تجاه مجموعة من البيوت تقف عليها شامخة صخرة بيضاء. كان الطريق منحدرًا، وبه انحناءات عديدة؛ فكان من الضروري المضي فيه على مهل. أبقينا النوافذ مفتوحة، لكن الهواء الذي يدخل كان ساخنًا وتفوح منه رائحة الحرارة والأعشاب الجافة. في المطعم، احتسينا عدة كؤوس من النبيذ وكنت أشعر بثقل في رأسي، كانت خصوصية المكان تعذبني، وكانت تعتريني أحاسيس مضطربة، تأخذني من الحلق وتهيج أحشائي، كنت أرغب في شيء من دي فيليتشي، كنت أريد أن يشاركني حالة الإعياء، والأسى الذي كان يخنقني، حيث كانت هناك أيام سعيدة، وأفراد إلى جوارنا، وأسرة، أما الآن لم يعد هناك ما نستطيع أن نسترده. كانت مادالينا تستحم في البحيرة، بجسدها المنطلق مثل الإلهة، وطفل يصرخ ليخرجها، ويشدها من ذراعها. وفي السيارة، كنت أنا وزوجي، بطول الطرق الملتهبة، لا نفعل شيئًا سوى أن نعانق بعضنا بعضًا، نار في الخارج ونار بداخلنا. في تلك اللحظة، كان لدينا أنا ودي فيليتشي كل شيء على أكتافنا. وفي الوقت نفسه، كنا لا نزال نرغب في الحياة، ونجتر شيئًا من ذلك الماضي، عنصرًا حيًا نتقاسمه. مادالينا، منذ ذلك الحين، لا بد أن تكون قد امتلأت قليلًا. كانت تمُر بالفترة الخاصة التي تمرُّ بها أي امرأة.

"كم تبلغ من العمر زوجتك؟"، سألته.

"الثالثة والخمسين. تصغرني بخمس سنوات".

"ما كنت لأقوله".

"ماذا؟".

«أن سيادتكم تبلغون من العمر ستين عامًا».

«لقد عقدت صفقة مع الشيطان على ذلك».

«يسرني أن أرى اللوحة التي تتقدمون فيها في العمر».

«تقصدين تمزقينها؟ ترغبين في فعل أي شيء لكي أتقدم في العمر، وأموت فجأة؟ أتريدين الانتقام مني؟».

«سأشعر باليأس».

«لمَ؟».

«لو متم أنتم أيضًا. سأفقد الأمل... «.

«لمَ؟».

«إنه كذلك».

«على أي حال، أنا في الثامنة والخمسين، سيدتي العزيزة. ولقول الحقيقة قد تحدد مصيري إلى حدٍ كبير، أود أن أقول إن الموت يعمل بداخلي منذ بعض الوقت». استدار عبر طريق صغير مترب، وأخذت السيارة تترنح.

«هنا يعيش معارفي»، قال. «أجيء إلى هنا منذ سنوات، منذ أن احتاج ابني، وهو صغير، إلى العسل وغذاء ملكات النحل. لديهم مناحل عسل، يصنعون لحم الخنزير ولديهم أغنام، ينتجون الريكوتا والجبن. أريد تجهيز طرد لإرساله إلى لندن، كما كانت تفعل والدتي، نحن من بلدة صغيرة بالجنوب، تركتها وأنا في الثامنة عشرة، بلدة صغيرة تطلُّ على الساحل. كانت أمي تغلف الصندوق بورق القش، وتربطه بالخيط، ثم تكتب العنوان بخط ملتوٍ، ومهتز كليًا. عندما كنت أستلم الطرد، أتخيل رحلتها كاملة، إلى أن تصل إلى مكتب البريد، خطوة بخطوة. كان وجهها مربعًا جميلًا، وإطلالتها بشوشة، وكأنه لا توجد سوى الأشياء الطيبة فقط في العالم. لكنها كانت عنيدة كالبغل؛ كانت تحمل الطرد سيرًا على الأقدام وكانت تجعل دائمًا وزنه ثقيلًا جدًا، وتلوح بيدها لسيارات معارفنا التي تتوقف لكي تنصرف". نظر إلي. «مر عشرون عامًا منذ وفاتها حتى الآن...»، أكمل حديثه وهو يهزُّ رأسه. «عشرون عامًا. وكأنهم لا شيء». في المزرعة جاء لمقابلتنا رجل ضخم،

أصلع، شاربه أسود كبير. كان دي فيليتشي يتعامل معه أيضًا بألفة شديدة. قدم لنا النبيذ في ظل شجرة توت. وكان دي فيليتشي في عون ابنه الذي كان يدرس بالكلية ولم يتمكن من اجتياز أحد الامتحانات. كان الفتى يستحق ذلك؛ ففي الصيف يعمل كالبغل في المزرعة؛ وتذكّره دي فيليتشي عندما كان يقود جرارًا في صباه. لكن كان شيئًا جيدًا أنه يدرس، ثم ربما يستقر هناك، ويعيد تنظيم المزرعة، بمعايير مبتكرة.

"ليس هنا، هذه الأعمال ثقيلة. وهو مختلف"، هذا ما قاله المزارع. كان الحرُّ الخانق يسود من حولنا في أرجاء الريف وأخذت حشرات السيكادا تصدر أصواتًا حادة. كانت المزرعة توحي انطباعًا بالفوضى، والجهد غير المنظم ولكن كانت هادئة. في تلك اللحظة، وعلى سبيل المثال، لم يكن هناك أحد. كان يوجد العديد من المباني الملحقة، وإسطبلات، ومخازن مصنوعة من كتل خرسانية ذات منافذ كبيرة تسمح برؤية أشولة، وجرارات وبضائع، وهناك منشآت مصنوعة من قطع الصفيح بشكل غير جمالي. وبالرغم من ذلك، كانت تبدو تلك المنشآت الحديثة ثانوية، مكان مؤقت قابل للإزالة بسهولة. كان البيت الأبيض، المطلي بالجص المقشر، والدرج الخارجي والنباتات المتسلقة التي تغطي جزءًا منه، يهيمن على الفناء المهجور. تحت شجرة التوت، كانت نسمات من الهواء تهب من حين لآخر، وكانت رائحة العشب قوية وبدت أصوات السيكادا وصراصير الليل قريبة جدًا، كأنما كانت مختبئة هناك، في العشب. اتصل المزارع بابنه، الذي سرعان ما خرج من المنزل وهبط درجات السلم، وهو فتى وسيم ذو بشرة داكنة ابتسم بمجرد أن رأى دي فيليتشي. استقبله البروفيسور بحرارة، صافحه، واستعلم عن امتحاناته وهو ينظر إليه باهتمام.

"ما كنت لأنجح دون مساعدتكم"، قال الفتى. "كنت بحاجة إلى شخص يعطيني الثقة في نفسي؛ هنا في المزرعة من يدرس فهو من كوكب آخر..."، ونظر إلى والده.

"إنها أختك راكيلي، مع نضوجها، ستصبح رفيقتك، أتخيل أنها ستكون قادرة على فهمك في غضون بضع سنوات"، أجابه دي فيليتشي.

"راكيلي تريد فقط اللعب"، أضاف الفتى وهو يهزُّ رأسه. "راكيلي تكره الكتب

والمدرسة. ترعى الدجاج مع أمي". اتجه دي فيليتشي مع المزارع وابنه إلى إحدى المنشآت، وبقيت جالسة على مقعد مترنح، في ظل شجرة التوت بعيدًا عن ضوء الشمس. عادوا وهم يحملون صناديق.

"سأصنع أيضًا هدايا من هذه المنتجات"، قال لي دي فيليتشي بينما كان يضع إحدى الصناديق على الأرض ويفتح باب السيارة الخلفي. كان يبدو بجانب الاثنين الآخرين أقل طولًا مما كانت عليه هيئته في المعهد وأكثر نحافة، لكنه رجل، على الرغم من تميزه وعدم لياقته الواضحة للعمل غير الإداري، الحيوي الحركي مثلهما؛ فقميصه الأزرق كان يضفي في الواقع شعاعًا من الشباب على هيئته كلها. قال: "عندما أُهدِي أحد هذه المنتجات، سأترك دائمًا انطباعًا جيدًا، وسيوجهون إلي الشكر ما لا نهاية". بعد ذلك، عندما كنا نصعد إلى داخل السيارة، خرجت زوجة المزارع من البيت، ولم أكن قد رأيتها بعد، ولكن ربما ذهبت بالفعل لتحية دي فيليتشي في تلك المنشأة، عندما كان يتسوق.

"بروفيسور"، نادته وهي تتقدم بخطوات ممدودة. كانت تشبه إلى حدٍّ كبير ابنها، جميلة هي أيضًا، على الرغم من لونها الداكن على تلك الطريقة؛ فبشرتها باهتة وملامحها قاسية بعض الشيء. وكان صدرها ممتلئًا مكشوفًا. خرج دي فيليتشي من السيارة ليلقي عليها التحية. أحضرت له زكيبة ممتلئة بالبيض الطازج تحية له، كانت تحتفظ بها في المنزل. أمسك دي فيليتشي بيدها وانحنى. من الواضح أنهم كانوا جميعًا ممتنين جدًا للبروفيسور، لكن نظرة المرأة كانت أكثر استعلاءً، مع لمحة عابرة من السيطرة ذات طابع جنسي. فأمام امرأة شابة سريعة البديهة، سرعان ما تمس نقطة الضعف لدي فيليتشي.

من هناك صعدنا إلى البلدة، عبر طريق آخر شديد الانحدار وانحناءات مائلة شاقة، عن طريقها يتكشف تدريجيًا الوادي بأكمله. زرنا القرية على مهلٍ (وأعتقد أنها كانت تسمى "روكا ألتا")، مرتفعة، بانورامية، قديمة وغير ملوثة تقريبًا. لا بد أن دي فيليتشي كان لديه شغف قديم بذلك المكان، لا يوجد ارتباط عاطفي به، لكنه اهتمام يرجع إلى تاريخ قديم، كان يتلفت حوله ببطء شديد، ولم يبدُ أنه يتعجل بالانصراف. لم يكن يتحدث كثيرًا، وكان لدي انطباع بأن وجودي إلى جانبه غير مؤثر إلى حدٍّ كبير، كما كان لمادالينا وابنها على الأرجح، في وقت ما،

بين تلك الأكواخ. لقد عاد عَالِم اللغة ليعيش بداخله، وخلاصة القول إن مهنته كانت تطابق طبيعته، أو على الأقل قد صاغت عقله على المدى الطويل. كانت نظرته دقيقة حاذقة؛ وكان عصبي المزاج قادرًا على الهدوء الشديد أمام تفاصيل الماضي الدقيقة. كان من المفترض أن تأخذ دروسي طابعًا موجزًا بسيطًا مقارنة بمحاضراته، وكان على الطلاب أن يدركوا أن هناك الكثير ليتعلموه منه، خلال السنة الأولى من دراستهم؛ وبدلًا من ذلك، ففي نهاية الدورة، تلقيت منهم تصفيقًا حارًا، وحفاوة.

توقفنا لنتناول المزيد من النبيذ، وجلسنا في الهواء الطلق أمام طاولات مطعم قديم. ثم قادني خارج البلدة، بطول طريق تصطف على جانبيه الأشجار يطلُّ على منظر طبيعي رائع من الوديان الضيقة والتلال العالية المتعرجة وكأنها جبال إلى حدٍ كبير. أتى المساء وأخذت تتشكل مجموعة من الظلال لها تأثير موجٍ بين التلال الصافية، بطول التجاويف والصدوع، عند سفح الصخور، وفي الأراضي الرمادية المائلة للون البني. وفي الوقت نفسه، كانت السماء مضيئة والهواء منعشًا. ارتديت سترة سوداء، وبتلك السترة كنت أرى نفسي أكثر نحافة، رفيعة جدًا، مثل فرع يوشك أن ينكسر، مختلفة تمامًا عن مادالينا الفاتنة. أخذت أفكر فيها، في حمامها وهي لا تعبأ بشيء، شبه عارية في الماء العكر، وجسمها الصحي يكاد يكون عاريًا، وكتفاها العريضتان البيضاوان تبتعدان بسحبات كبيرة للذراعين في البحيرة؛ لا بد أن بعدها عنه قد حطمه؛ فالشعور بالوحدة متأصل في رجل مثله، ولكن ليس الهجران؛ والإحساس بفقد شيء لا رجعة فيه (هذه الإنسانة الرائعة، هذا الجمال الاستثنائي، كانت معي، ملكًا لي، وابني هذا سيكبر وسيذهب بعيدًا وسأفقده، لقد فقدته، هذه الأم البشوشة، هذا الأب، هذه السعادة الغامضة التي لا تنضب للماضي...) كان شديد الألم لروحه العاطفية. جلسنا على أريكة شبه غارقة في العشب. كانت هناك رائحة قوية من عشب الجبل، والنعناع ونسيم المساء. أسندت رأسي إلى كتفه ولف هو ذراعه حولي.

"يرجع لون الصدوع إلى الرواسب البحرية التي شكلت الصخور"، قال، "هذا المكان مملوء بالحفريات، وإذا بدأتِ بالحفر هنا ستجدين الكثير منها". لكنني، كنت أرتجف ورأسي مسترخٍ على كتفه. أمسكت بيده وداعبتها ولامستها بشفتي. "أنتِ"، استأنف، "لديك ميول للتدمير الذاتي. أتعرفين يا نينا، أنتِ حقًا إنسانة مؤذية

لنفسها. أنا لست بحاجة إلا لعاهرات أو ممرضات. كيف تقدمين نفسك؟ إنك امرأة ذكية ومثال للتكامل، فماذا بوسعي أن أفعل حيالك؟".

"مثال للتكامل؟"، قلت. "ألا تدرك أنني تركت زوجي يموت بعيدًا عنّي؟".

"وحتى هذا؟ مادالينا سوف تفعل ذلك أيضًا. فبقدر انشغالها بي، في اللحظة الحرجة لن تستطيع الحضور. أنتن فوضويات. لا تشعُرن بالذنب. ومع ذلك، فأنتن أفضل ما يمكن أن يقابله الرجل في الحياة. وهناك ما نأسف عليه حيالكن إلى الأبد..."، قال، وهو ينهض فجأة من على الأريكة ويمد لي يده لكي أنهض أنا أيضًا. وتابع قائلًا: "نينا، لقد أخطأت. كان عليّ أن أتركها في سلام، عندما كانت "فأرًا في المكتبة"؛ لأنه ما كان يهمني فيها كونها امرأة وليست باحثة. لكني أؤكد لكِ أنها كانت معلمة ماهرة للغاية".

مشينا في صمت. أمسكت بذراعه. وكنت أرغب بكل كياني الاقتراب منه. "حتى الدكتور سالڤي نقي على طريقته الخاصة، متعصب بعض الشيء، لكنه نقي"، استأنف حديثه، "إنه من عائلة فقيرة جدًا. لا بد أنه صنع المستحيل ليقوم بما أنجزه، وفي تجميع الألقاب التي حصل عليها. ولو أنه، لقول الحقيقة، في كل تلك الأبحاث، لا يوجد شيء واحد راسخ، لمسة من فكر أصيل. وعلى كل حالٍ، ربما يكون علاجًا فعالًا بالنسبة للقسم، ليس إلا، لأنه سيحضر دائمًا، وسيتابع كل شيء بعناية شديدة، إنه دقيق للغاية".

"لن يكون مثلكم أبدًا"، قلت.

"هل أنا دقيق جدًا؟ هذه حقيقة. لا يفوتني شيء مما يحدث في القسم. وماذا عساي أن أفعله خلاف ذلك؟ ماذا يتبقى لي أن أقوم به أيضًا كما ترين، سيدتي؟". في طريق العودة سألني عن زوجي وأخبرني أن أحد معارفه كان مصابًا بالمرض نفسه، ولكن تطوره أكثر بطئًا. نصحني بالعودة إلى ابنتي في أسرع وقت ممكن، وعدم ترك الوقت يمرُ، مما سيجعل الأمور تزداد صعوبة؛ فكاتيا كان لديها الشباب والحياة أمامها، وڤانچا حليف لها، وكانت في موقف قوة وقد لا تتفهم ماذا كنا سنخسره كلانا إلى الأبد.

XII.

في النهاية ذهبت إلى المؤتمر الذي ستشارك فيه كاتيا. طلبت الإذن بالتغيب ليوم واحد من معهد اللغة والثقافة الروسية (حيث تم تعييني بعد عودتي من إيطاليا بفترة وجيزة) وأخذت القطار إلى خاركيف، ومعي حقيبتي الجلد السوداء، وأرتدي ثوبًا أزرق، وحذاءً منخفضًا، والقرار الذي اتخذته كان مضطربًا مؤلمًا؛ مما جعلني في القطار لا أستطيع القراءة أو التفكير، فشاهدت طوال الوقت المناظر الخارجية دون أن أرى، وألتقط سريان الأشياء الخارجية والسماء، وجريانها، وهروبها. وصلت إلى الجامعة بسيارة أجرة في صباح ساطع صافٍ حيوي. كان من المقرر أن تقدم كاتيا دراستها في الجلسة الثانية لفترة الصباح، التي تبدأ في الظهيرة. عندما دخلت قاعة المؤتمرات بجامعة خاركيف، وهي قاعة مضيئة بها مقاعد من الخشب الفاتح على شكل مدرج، كان هناك باحثان آخران عند الطاولة. جلست في الخلف، عند أحد الجوانب تقريبًا، على أمل ألا تراني، وعيناي تبحث عنها. في الحقيقة، تعرفت عليها على الفور. كانت تجلس في الصف الأمامي، بين رجلين يرتديان سترتين سوداوين؛ وهي أيضًا في ثوب داكن، وشعرها الكثيف متموج فوق كتفيها: كانت تنصت ورأسها يميل قليلًا إلى الجانب. كان أحد الرجلين بجانبها يهمس في أذنيها من حين لآخر وهي تستدير له، عندئذ كنت أستطيع رؤية وجهها، جزء صغير منه، وجنتها، لمحة من أنفها المدبب، والتعبير المعتدل الباسم الذي تعرف كيف تحتفظ به مع الآخرين. أخذت أحدق بها بشدة، إنها كاتيا ابنتي. ثم حدث تغيير وصعدت هي على منصة الباحثين. كانت ترتدي قميصًا أبيض، مفتوحًا قليلًا تحت السترة الرمادية؛ كانت تحتفظ بكتفيها مستقيمتين، ووجهها مسترخٍ، ثابتة، منتبهة، تنصت إلى منسق المؤتمر الذي كان يقدمها، كانت أصغر المتحدثين في المؤتمر، أملًا واعدًا للبحث الطبي والعلمي... كانت هناك حدة مبالغ فيها بعض الشيء، هذا ما فكرت به وأنا أنظر إليها؛ ولكن أيضًا وهي جالسة على هذا النحو، ومع تلك المسافة البعيدة، كانت تترك انطباعًا بالمثالية، والغطرسة وجاذبية جسمها أمام كوكبة أغلبها من الرجال، ماذا كان سيخطر في بال والدها تجاه تلك المرأة الشابة؟ لم يكن يدخل غرفتها قط، وبما أن تلك الغرفة كانت أيضًا هي المكتب والأرشيف الوحيد لدينا، كان يرسلني إذا احتاج إلى أي شيء. وفي وقت لاحق، اضطرت ابنته إلى تغطية جسد والدها العاري، لكن هذا الأمر يدخل في الجانب

المظلم من حياتنا. كان حياؤهما طبيعيًا، أي ممارسة الحياة لأيام طويلة متشابهة وواضحة؛ فقد كانت علاقتهما غريبة. أما أنا فكان من المستحيل في ذلك الوقت أن أحافظ على تلك المسافة، كنت أرى من الطبيعي أن ألاحظ كل شيء، وأعرف كل شيء، ولم يكن بوسعي التفكير خلاف ذلك في علاقتي مع كاتيا، لم يحدث بيننا أي شيء على الإطلاق، باستثناء إحساسي بجسدي نفسه، عند تلك النقطة. حسنًا، إن تلك المرأة القادرة الحادة الشابة، التي كانت تجلس عند منصة الباحثين في قاعة رائعة على هذا النحو، هي ابنتي؛ وعلى نحو ما، فلم يكن هناك شيء أكثر ذهولًا من انفصال قَدَرَينا عن بعضهما. لما بدأت تتحدث، زاد صوتها الحازم الواضح الهادئ من ضربات قلبي بصورة أكبر من المعتاد، وصارت بالنسبة لي، وبعد مضي وقت طويل، حضورًا حيًا حتى إن روحي لم تستطع تحمله. أخذت تُلقِي كلمتها دون أن تقرأ، وأحيانًا تخطف نظرات سريعة على بعض البيانات الإحصائية المسجلة، أو هكذا كنت أراها، على بعض الوريقات، دون تردد أو قلق، ربما بشيء من الاستعلاء. كانت اللجنة تنصت إليها في صمت واهتمام؛ فقد كان يومئ برأسه رجل مسن في الصف الأمامي، وهو أستاذها. أما الآخرون فكانوا منتبهين. أخذت أستمع، وأنا أحاول أن أفهم، لكن العقل كان شاردًا. تعيش كاتيا فترة فارقة في حياتها، فلا شيء أكثر حماسة من أن تدرس توقًا للنجاح، وأسلوبها، ومثابرتها تحولا إلى مدارج إقلاع، ثم هذه النتائج المبكرة التي تفيض بالإطراء. ومع كل هذا، كنت أريد أن أحميها، من الزمن، من الحياة، ومن هؤلاء الرجال.

"الطالبة التي أضع ثقتي بها، وستواصل معي الأبحاث"، هذا ما أشاد به أستاذها، واختتم الجلسة ببضع كلمات رخيمة ورصينة تتحدث عنها بشكل خاص. ثم فهمت أنه كان المشرف عليها، والرجل الذي تدين له بهذا المدخل في العالم الصغير للعلماء على المستوى المحلي؛ وهو رجل مسن، شديد النحافة، ملامحه لها تعبير غريب متغير وصوته فقط، من تلك المسافة، يعطي انطباعًا على أنه حسن، ساخر، متأثر ببعض الأمراض. لم أستطع أن أتخلى عن التفكير في چوليو دي فيليتشي. في الواقع، كانت لذكراه وجود في حياتي، غير مستقرة بعض الشيء، لكنها متكررة. وكل ما يشغل تفكيري في لحظات معينة هو أن هناك شيئًا ما مفقودًا في قصة تعارفنا، ومن ثم أرى أنه بوسعي أن أنتظر اليوم الذي يتكشف لي ما لا أعرفه؛ يتملكني إحساس بضرورة أن أفصح له عن بعض الأشياء، مزيج غريب من قيمة

ثقافية وحنان غير معلن، إجابة مناسبة لاهتمامه بي وسخريته مني. لكن، على الأرجح، لن يحدث شيء من هذا القبيل. ومن هذه اللحظة حتى سن الشيخوخة، لن يحدث شيء على الإطلاق.

وعلى الرغم من ذلك، لن أتنازل عن أملي في أن يحمل القدر استثناءً لكاتيا. إن ذلك الرجل المسن يقدم لها الأبوة في ثوب جديد، أبوة غريبة تمامًا عن ماضينا، وبنوة يتم تكوينها بشكل جديد، لكنها قد تؤثر على مستقبلها؛ بل تعطي لها حماية جديدة متطورة، وإذا ما قارنتها بحمايتنا، ستقتصر هذه الأخيرة على الشجن للأشياء القديمة والحنين إلى الماضي. ثم إن هناك علاقة ودية بينهما، محترمة، بل متناغمة. هي، في نهاية الجلسة، لم تبحث عن أحد سواه، وهو أمسك بيدها، وابتسم لها، بذلك التعبير الغريب الملتوي الحسن. في تلك الأثناء، تجمع آخرون حولها وكانت تبتسم، تنصت، تومئ برأسها، تنظر تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك. في تلك اللحظة، رأيت أن الوقت قد حان لكي أنصرف، وأغادر القاعة في هدوء. أخذت حقيبتي وتوجهت ناحية الباب. لكن بعد بضع خطوات سمعتها تنادي علي، ووجدتها خلفي.

"أمي؟ كيف علمتِ؟ بأي وسيلة وصلتِ؟"، سألتني. كانت طويلة القامة، مقارنة بي، شاحبة نحيفة، بشرتها مشدودة على عظام وجنتيها وحول عينيها هالة داكنة. من بعيد، بدا لي أنها أكثر ارتياحًا وإشراقًا (لم تعد فتاة تلك التي تقف أمامي، بل امرأة، شابة مُتعَبة، والزمن بين هاتين الصورتين سيظل مفقودًا إلى الأبد).

"كنتِ رائعة، متألقة"، أجبتها وأنا أرتجف، "...أنا، في الحقيقة، لم أفهم كثيرًا؛ ولكن أظن أنكِ كنتِ واضحة جدًا. تحدثتِ دون أن تقرئي، كان الجميع ينصت إليكِ باهتمام. لم يفعل البروفيسور شيئًا سوى الإماءة بنعم".

"من الطبيعي أن يوافق"، قالت بنصف ابتسامة، «كل الذي ذكرته يأتي من جعبته. لكن كيف حالك؟ كيف أتيتِ إلى هنا؟».

«أخبرتني زميلة لي عن المؤتمر. وفكرت أن أحضر»، قلت في حيرة من أمري. وكنت أستشعر، في الواقع، لمحة من تركيز ودود في وجهها. "لا أدري ما إذا كنت قد أحسنت صنعًا، كنت مترددة حتى اللحظة الأخيرة ، ثم عند الفجر، ركبت القطار".

«رحلة طويلة. لم أكن أتخيل، في كل الأحوال، أنكِ ستأتين».

"في الواقع لم أكن أعرف كيف كانت ستسير الأمور، أعني أنه ربما كنت ستفقدين التركيز، إذا ما رأيتني... فوجود أحد من أفراد الأسرة، في مثل هذه المواقف، يمكن أن يحدث حالة من الارتباك".

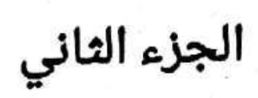
"لم أرِكِ عندما كنت أقدم ورقتي البحثية، لمحتكِ فيما بعد وأنا أهبط من على المنصة".

"حسنًا، في الحقيقة، لم أكن أدري، لذا جلست في الخلف... أنتِ أنيقة جدًا يا كاتيا". لكن في تلك اللحظة رأيتها تلقي نظرة خاطفة على زملائها. "تضطرين للانصراف، أليس كذلك؟"، عندئذ قلت لها وأنا قلقة. "فلتذهبي، لا تنشغلي بي، سأعود إلى المحطة الآن؛ فلتلحقي بالآخرين، لا تفوتي هذه الفرصة".

"بإمكاني أن أبقى يا أمي. لكن هل ستغادرين على الفور؟ ألا تريدين أن أقدمك إلى أستاذي؟".

"سأذهب يا كاتيا مرة أخرى، عليّ أن أرحل من جديد، استأذنت ليوم إجازة واحد فقط، وفي صباح الغد يجب أن أحضر إلى المعهد مرة أخرى. فلتذهبي أنتِ، الأمر مهم، ما زالوا يريدون تهنئتك. لا تقلقي. الآن أستقل سيارة أجرة، هنا، أمام المبنى، وأذهب إلى المحطة. وفي أقل من خمس ساعات سأعود إلى المنزل؛ كاتيا، اذهبي... إنه رائع، يا كاتيا، ما تعيشينه. إن الحياة تقدم لحظات حماسة كبيرة"، هذا ما قلته لها.

لم أتوقف. لم أرغب في أن تقدمني لأساتذتها وزملائها. كنت سأورط نفسي في مأزق. منذ ذلك الحين، وقد مرت فترة طويلة، وأنا ألقي أحاديث بسيطة، وأشرح لطلاب معهد اللغة والثقافة الروسية أن سيبيريا تُكتب Сибирь باللغة الروسية، ولماذا يطلق عليها هذا الاسم. وتوقفت تقريبًا عن القراءة أيضًا، حتى تشيخوف لم يعد يتحدث إليّ. كل شيء يضيع.



الجزء الثاني

وقال: «سنبقى لنرى»

ثلاث سنوات لأنطون تشيخوف

I.

تلقيت دعوة من چوليو دي فيليتشي لحضور مؤتمر حول أنطون تشيخوف؛ عُرِضَ عليَ السفر والإقامة، وهكذا، عدت إلى إيطاليا بعد ثماني سنوات. ومع ذلك، ونظرًا لأن أحدًا لم يكن في انتظاري مساء أمس، أمضيت الليلة في منزل ماريانچيلا، التي تبلغ من العمر نحو مئة عامٍ ولا تزال على قيد الحياة؛ وشاركت الفراش الذي كان لي مع الجليسة الحالية، مواطنة شابة من بلدي تدعى ليزاڤيتا. كانت أضواء السيارات تخترق الغرفة عبر المصاريع المواربة وتنير وجهها الممتلئ، الذي يتخذ هيئة شبه طفولية، وتآلفت مع هذه الفتاة حتى تجاذبنا أطراف الحديث، ونحن جالستان متكئتان على ظهر السرير، في أمور مهمة في حياتي. كانت السماء تمطر عند وصولي إلى ماتشيراتا، ووصلت وقد أغرقني المطر إلى المنزل، وفي دفئه شعرت بأنني على ما يرام؛ وعلى الرغم من هذا اليوم العاصف، وأنا أعبر حي "الحرفيين"، تعرفت على بعض الأماكن -شارع البيوت القديمة، والصعود والهبوط المتعرج، ومتجر المواد الغذائية حيث كنت أعمل وتلقيت فيه خبر وفاة زوجي، والكنيسة- وذكراها تجعلها عزيزة عليَ، مع الروائح العطرة لبشائر الربيع، التي تزكيها أمطار المساء. لم أتحدث منذ فترة طويلة عن الأحداث التي وقعت على هذه الأرض، ولكن في ظلام الليل وانفعالي بالعودة، جاءت ثقتي بالفتاة طبيعية؛ حتى إنه في مساء أمس، بينما كنت أحكي، أحسست بأن الندم تقل حدته والذكريات تتخذ ضوءًا جديدًا، ومن ناحية أخرى، فمنذ فترة ونواة ألمي القاسية تفقد ثقلها؛ حيث إنني أرغب في العيش وعلى استعداد للقيام بذلك، أشعر أيضًا بأن ذنبي بسيط، وليس بوسعي عمل شيء حيال ذلك الإحساس؛ لقد كانت لأحداث إقامتي بإيطاليا أوقات ووسائل محدودة، وكما يتضح جليًا في الحديث عنها، وكونها محددة مختصرة للغاية، ليس لها في واقع الأمر علاقة تقريبًا، وبغض النظر عما تظنه ابنتي، مع تلك المأساة الكبيرة لوفاة والدها التي مضت ولا تزال حية؛ فقد مرت ثماني سنوات منذ ذلك الحين، وأصبحت المبررات المختلفة الآن غير مؤثرة مع مرور الوقت الذي أزال -عن غير قصد- جوهرها المؤلم. ومن ثم، كنت أريد أن أنبِّه ليزاڤيتا؛ فشكلها الطيب الهادئ وملاطفتها الراضية في إخلاصها للسيدة العجوز، حسبما كان يبدو لي، كانا يكشفان عن عدم وعي محفوف بالمخاطر. كانت إقامتي في إيطاليا هي السبب في كل شيء؛ فالابتعاد عن الأسرة

لفترة طويلة للغاية لا ينبغي أن يحدث إلا إذا ما وصل التحمل منتهاه وربما ليس أيضًا في هذه الحالة (لكن هل كنت سأتخلى عن الرحيل حتى لو كنت قد علمت أنني سأدفع غاليًا أيام الوهم الكبير تلك، والحلم الذي يتجدد الآن في حياتي مثل الربيع المتأخر؟). ومع ذلك، أرى أن ليزاڤيتا لا تستشعر بأي لمحة مستقبلية حول مصير حياتها، كما أنها لا تبدو على استعداد لأن أشاركها مشكلاتها؛ لها ابنة تبلغ من العمر عامين وتعيش مع جديها، ولم ترها منذ خمسة عشر شهرًا، ولا يبدو أنها تخطط للعودة إليها؛ بل كان من الواضح أنها لا تريد التحدث عن ذلك، وسرعان ما أصبحت متحفظة. وعلاوة على ذلك، أخذ اهتمامها يتبدد شيئًا فشيئًا. كانت منتبهة، لكن يبدو أن النعاس غلبها. لكنها فجأة، حينما قررت أن تتوقف عن الحديث، أفاقت؛ ووجهها الممتلئ أطل بإشراقة وبدت حاضرة الذهن تمامًا.

"حسنًا، أنا اليوم سعيدة"، قالت لي، "هناك عفو عن المهاجرين غير النظاميين، وأخبرني شقيق ماريانچيلا أخيرًا، بالأمس، أنه على استعداد ليدفع للبدء في الإجراءات".

"ما زلت تتهربين؟"، سألتها وأنا أنظر إليها. "ولهذا لا تستطيعين العودة عند ابنتك..." لكنها صمتت من جديد. ووددت لو أسألها عن أشياء أخرى، وأفهم ما الذي منعها من تسوية أحوالها (على مر السنين ازدادت الأمور صعوبة، وكثيرات منا، حتى عندما كنت هنا من قبل، كن يعشن مختبئات)، لكنها ألقت الوسادة إلى أسفل واستلقت وأدارت لي كتفيها. في الظلام كنت أرى هيئتها المستديرة الملفوفة في الملاءات وشعر فتاة طويلًا.

"ليزاڤيتا، "هل تحبين هذه الأرض؟"، لكنني سألتها، بينما كنت مستلقية أنا أيضًا.

"نعم"، أجابتني، "لكن لا أفهم، إنها أرض رائعة وغنية، بها أشجار الزيتون ، والكروم، والجبال ، والبحر، لكن لا يوجد عمل. هذا يعني أنهم لا يعرفون كيفية توفير فرص للعمل...".

"هل ستبقين هنا وتعيشين إلى الأبد، إذا ما تغيرت الأوضاع، ولو لم يكن لديك من ينتظرك في بلدك؟" سألتها.

"لا أعتقد ذلك"، أجابتني.

"لمَ؟".

"لأنني أفضل الأرض التي ولدت فيها؛ فقط، أود أن أذهب لأعيش في مدينة كبيرة".

"بوسعي أن أبقى أنا أيضًا"، قلت، "وفي هذه المرحلة، يمكنني أن أظل هنا أيضًا، إذا ما سنحت لي الفرصة وأتيحت لي إمكانية العيش بكرامة ودون متاعب كثيرة". لكن ليزاڤيتا لم تعد تريد الإجابة عليّ؛ فقد غلبها النعاس، وفي اليوم التالي كان لا بد أن تنشغل بإجراءات مهمة في حياتها، وبالتأكيد كانت انفعالاتي المتضاربة وحكيي الطويل قد أرهقاها. تلففت أنا أيضًا بالغطاء، وواصلت مراقبة الاختراق الذي بدأ يقلُّ شيئًا فشيئًا للضوء على خزانة الملابس وخزانة السرير ذات اللون البني الداكن، وأركان الغرفة، وأنصت إلى الأنفاس وصرير المنزل القديم. وبمرور الوقت، انمحت ذكرى الأشهر التي قضيتها مع ماريانچيلا بسبب ثقل الأحداث اللاحقة، ولكن هذا المكان عاد مساء أمس ليطلب اللقاء بصور مبهمة من التفهم والكآبة؛ فتلك المرتبة المصنوعة من شعر الخيل، والملاءات المصنوعة من الكتان القديم، والهواء المغلق المكتوم، وتشتت الضوء، كانت تستدعي إلى ذاكرتي أيام البعد التي واجهتها بعزم في ليالٍ من العزلة. حتى لو خففت ذاكرتي من متاعب تلك اللحظات التي -على الرغم من كل شيء- كانت تجسدها في صورة بشرى لأيام غير مألوفة، كان يقوى بداخلي اليقين بأن حياتي تستحق شكلًا من أشكال النجاة.

.II

أعرف جيدًا هذا الضوء الخافت، المنتشر، الذي يسقط من أعلى نافذة زجاجية لآخر جزء مسطح من السلم على درجات حجرية غير منتظمة ومتهالكة تؤدي إلى قسم اللغات؛ لقد جاء وقت كان فيه صعودي لتلك الدرجات في الضوء الخافت تقريبًا عادة لطيفة وهذا من المفترض أن يمسني، لكن شيئًا ما يشتت تفكيري عن الماضي. وعلى الرغم من تدفق الذكريات التي انغمستُ فيها مساء أمس مع ليزاڤيتا، فإن روحي في هذا الصباح تميل تمامًا إلى الحاضر؛ فقد عبرت المسار المعروف، في الهواء النقي، في عزم فريد من نوعه، إن جاز التعبير.

وهذا الباب الثقيل، القديم، الذي ينفتح ببطء، معروف لي جيدًا أيضًا، والممر الأرستقراطي الطويل الذي تطلُّ عليه مكاتب الأساتذة وواجهة المكتبة الزجاجية، وربما ما زالت مغلقة. وستصل إستير بعد قليل. ليس بالقسم أحد، لكن باب المكتب الموارب يشير إلى أن البروفيسور، كما كان من المتوقع، موجود هنا بالفعل؛ ومن ناحية أخرى، أشم بوضوح رائحة دخان سجائره. نعم، كان چوليو دي ڤيليتشي جالسًا أمام طاولته في الحجرة شبه المعتمة، لا يشعر بوجودي مستغرقًا في تفكير انطوائي كئيب؛ ولما أحس بوجودي، رفع نظراته للحظة، وهو مضطرب. عندما تعرفت إليه، كان في مثل هذا الوضع تقريبًا. نهض، جاء ليستقبلني، وصافحني بحرارة. كان يرتدي زيًا رماديًا، أنيقًا، مهندمًا. كنت أول الضيوف الذين كان في انتظارهم واندهش لوصولي بهذه السرعة. رافقني إلى طاولته المتينة، بلطف شديد وسلوك مرح قليلًا عندما يكون هادئًا.

«أراك بحالة جيدة»، قال لي ونحن نجلس، الآن بروح ملاطفة ساخرة أعرفها جيدًا أيضًا، «أجدك أقل إرهاقًا، لم تعودي تبدين جليسة، أراك أستاذة في ريعان شبابها».

"هل كنت تراني جليسة للمسنين عجوزًا؟"، سألته؛ وأنا أجتهد في مقاومته ولكني بالكاد أسيطر على اضطرابي. أحتضن حقيبتي على ساقي، وأحاول أن أبقي كتفي مستقيمتين؛ فكان يجول بداخلي للحظة وجيزة ذكرى الهدوء والسكينة في حجرة مكتبي، وكتلة الملفات المكدسة على المنضدة، في الضوء الرمادي. "في الواقع، وصلت مساء البارحة ونمت في منزل السيدة العجوز التي كنت أعمل

لديها منذ فترة بعيدة. لقد رحبت بي، في حين لم يكن هناك أحد ينتظرني بذراعيه المفتوحتين...".

"في المرة القادمة، أخبريني"، قال لي، "أبلغيني بقدومك، وسآتي لاستقبالك بباقة من الزهور...". ها هي. إن تهكمه على أهبة الاستعداد دائمًا. لكن ماذا به؟ هو أيضًا قد تقدم به العمر. فعيناه الملونتان متعبتان متقلصتان. وبالتأكيد وجهه أكثر تجويفًا مما كان عليه من قبل؛ وبالتحديد في نظرته، في ذلك الوجه الباهت، بين عظم الخد البارز والفم، ووراء اندفاع يكشف عن لمحة جديدة، يكمن الاستعداد، الذي لم يكن من الممكن أن يخطر على بال أحد، للتسامح؛ فمن المؤكد أن شيئًا قد حدث، حتى شعره بدأ يتساقط. وفجأة تبدو لي حجرة مكتبه هذه، التي طالما أحببتها، كأنها عالم في نهايته. أتلفت حولي، أتعرف على طاولتي التي كان ينعكس عليها، كما كانت الحال دائمًا، الضوء المفعم بالتراب عبر المصاريع نصف المغلقة.

"أين الدكتور سالڤي؟"، سألته.

"قد اختفى"، أجابني. لا أدري. تقدم بأوراق زائفة ليشغل منصبًا والآن يعمل في جامعة أخرى حيث احتل مركزًا مرموقًا.

"لم يكن يبدو عليه أنه من هذا النوع".

"إنه انتهازي"، عقب بشكل قاطع. الآن إنه هو بالضبط، نظرته الغاضبة لأحكامه غير القابلة للمجادلة التي تعيد إليه حيويته، وأنا على يقين من أنه سيهاجم في خطبته المعتادة هذه الخيانة الأخرى التي تعرض لها في مستنقع الجامعة هذا؛ سيتحدث عنها طويلًا، وعلى هذا النحو ستشغل وقتنا كله، على الرغم من أننا لم نرَ بعضنا بعضًا منذ ثماني سنوات والأمور المهمة في حياتنا لم يتم التطرق إليها بعد -أعني ما بقي معلقًا بيننا والتفاقم المتوقع لحالة الوحدة عند كل منا- ومن المتوقع أن هذه الأمور ستظل غير معلنة، نظرًا لقصر مدة إقامتي الجديدة (فسأرحل مرة أخرى في غضون يومين، بعد المؤتمر مباشرة). لكننا نسمع خطوات على طول الممر، خطى منهكة لجسد يبدو ثقيلًا ويلتقط أنفاسه بعناء. نهض دي فيليتشي بحماس ليقابل الضيف الجديد الذي تقدم عند الباب. استدرت، ونهضت أنا أيضًا. إنه رجل عجوز، ولا أعتقد أنني تعرفت إليه قط، يقف ساكنًا عند المدخل، يصافح دي فيليتشي على عجل، وهو يومئ برأسه بشدة؛ وبترحاب بسيط؛ فمن

الواضح أنه مستغرق في تفكير سيشرع مباشرة في عرضه، مع احتباس الكلام لمريض بالربو، وحتى قبل أن يتاح لهما الوقت للاقتراب من طاولة المكتب وضرورة القيام بالعرض التقديمي اللازم.

"عُرِفَ بالأمس فقط...".

"ثم ماذا؟".

"لم ينجح. نيران صديقة، بلا شك... لا يمكن الوثوق به على الإطلاق... أبدًا... مثلما علمتموني سيادتكم...".

لم يكن الأمر واضحًا لي، لكن لا بد أنه يتعلق بمشكلة تخص باحثًا يعرفانه كلاهما؛ يشعل دي فيليتشي سيجارة، ينصت، ومن الواضح أنه مهتم؛ وأعلم مسبقًا أنهما سينغمسان في المشكلة. ألتفت حولي: الظل والضوء المفلتر الذي يحط على غبار الأثاث الأنيق، والهواء المتشبع برائحة الدخان والجلد، ثم حركة الحياة التي نتعرف عليها من الأصوات الخافتة خلف المصاريع نصف المغلقة، كل هذا يسرني ويُعزّيني باستحضار الماضي؛ في الحقيقة، مقارنة بالفراغ والكآبة في حجرة مكتبي المتواضع المتهالك، أرى هذا المكان، ولنفس الإحساس بالتشبع والنهاية الذي يهيمن عليه، يحمل بقيمة إنسانية. أود أن أذهب لأجلس أمام طاولتي، وأداعب الخشب المصقول، وأرتب، كما اعتدتُ في الأمسيات المتعبة، عندما لم يكن لدي ما أفعله وأعطيت كل ما عندي في ساعات المحاضرة. أرغب في الحصول على وقت لكي أستقر وأعثر على هذا الإحساس الذي يقرب من الألفة وجعل مني امرأة مختلفة قبل ثماني سنوات، لكنني أشعر ببعض الحرج لأن الضيف الجديد يستمر في تجاهلي.

"سأذهب بعيدًا لبضع دقائق"، قلت وأنا أقترب من الاثنين، "سألقي التحية على إستير". ينظر دي فيليتشي إليّ؛ لا يبدو أنه ينتبه إلى كلامي، فهو منغمس تمامًا في الحديث الآخر؛ وزميله يراقبني بلامبالاة، والنظرة الداخلية غارقة في تعقيدات تأملاته، وينتظر أن ينتهي تطفلي سريعًا. وليس لدى دي فيليتشي أدنى فكرة في أنه من اللياقة القيام بتقديم كل منا إلى الآخر. وزميله أيضًا يتابع أفكاره.

"فلتنتظري سيدتي"، تحدث إليّ أخيرًا. المشكلة في أنه ينبغي أن ينصرف

وينشغل بالباحثين القادمين، سيكون من المفيد له أن أحل محله في قاعة الدرس، إذا ما ملكت الشجاعة.

وهكذا عدت إلى القاعات الدراسية المشرقة في هذا المبنى. الطلاب جالسون بالفعل، وأنا واقفة، وأتكئ قليلًا على المكتب، في انتظار من يصل منهم متأخرًا، وأماطل لبعض الوقت؛ سأضطر إلى تقديم نفسي لأن دي فيليتشي لم يكلف نفسه عناء مرافقتي، وسأقدم نفسي كمتعاون سابق في هذا القسم، ولا أدري ماذا أقول غير ذلك، لكن لا أظن أن الطلاب مهتمون كثيرًا. في تلك الأثناء، عانقت إستير بحرارة، وهي احتفت بي كما لو كنت أكثر إنسان في العالم كانت ترغب في رؤيته مرة أخرى؛ ازداد وزنها بضعة كيلوجرامات، وكانت ترتدي قميصًا طويلًا لونه أخضر باهت (وهو لون عينيها اللامعتين)، فبدت ربة منزل أكثر مما كانت عليه آنذاك وبالتأكيد أكثر ضعفًا، وربما تعلمت أن تلقي وراء ظهرها أهواء المعلمين العديدة المستفزة. كان لدينا بعض الوقت، وأرادت أن تقدم لي القهوة عند ماكينة التوزيع؛ فهي التي اهتمت بالحد الأدنى من كرم الضيافة الذي كان لا بد أن أحظى به من قبل. ذكرت أن دي فيليتشي أصيب بخيبة أمل كبيرة بسبب خداع الدكتور سالڤي وأن مزاجه في تلك الأيام سيئ أكثر من أي وقت مضى؛ وكانت انفعالاته مخيفة. ثم هدأ، وفي الفترة الأخيرة ظهر أكثر هدوءًا، ويمكن القول إنه مكتئب، حتى لو ظهر اليوم مبتهجًا وهذا يرجع إلى المؤتمر. في الواقع، إن عذاب دي فيليتشي الحقيقي هو مادالينا، التي تركت المدينة وذهبت لتعيش مع ابنها بشكل نهائي؛ ويبدو أنه ذات مساء بكى أمام إستير في المكتبة وهي خالية. ومن ناحية أخرى، ففي الأيام التي أعقبت وفاة زوجي، نفست معها عن آلامي، أنا أيضًا. ومع ذلك، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها البروفيسور معها عن حياته الخاصة، وربما الأخيرة أيضًا؛ فلا بد أنه عانى كثيرًا من هذا الهجر النهائي، لكنه لم يفعل شيئًا لمنع حدوثه؛ وربما عادت مادالينا إليه لو كان قد طلب منها ذلك. لقد تعرفت إليها إستر، إنها امرأة أفنت نفسها أسفًا على اختياراتها، جمالها مهم لكن كُبِحَ جماحه، وضَعُف بشدة أمام خِصال مثل خِصال دي فيليتشي؛ فعلى الرغم من أنها كانت تنظم دائمًا مواعيد لقاءاتهما، فإنها في الواقع لم تفعل شيئًا سوى تغطية وضعها كشخص تابع ومُعرض للهجوم بأسلوبها ذاك البراجماتي واهتمامها الدائم به (تركته لشخص آخر، خطأ جسيم، على الإطلاق)؛ ولم تتقاعس قط عن فراشه. وفي مرضه،

تضعف معنويات دي فيليتشي، وربما يثور ولكن يصبح أيضًا أكثر ودًا؛ وبالنسبة لها لا بد أنها كانت أفضل اللحظات التي كان يتركها تسير على هذا النحو، ولفترة مؤقتة. هذه القصة تؤثر في، وأتساءل لمَ اليوم فقط، وأثناء لقائنا هذا العفوي، عند زاوية ماكينة التوزيع، ومخاطرة بأن يسمعنا أحد، جاءت إستير لتكشف لي الكثيرا... لقد كانت دائمًا متهورة بعض الشيء. ربما بكاء مثل هذا الرجل قد أثر فيها وفي النهاية أظن أنها كانت مغرمة به.

على أي حال، الآن، وأمام هؤلاء الطلاب، أنا منتشية إلى حدٍ كبير، ومن ثم، ونظرًا لأنه لم يعد يأتي أحد والطلاب جالسون وينتظرون، أقدم نفسي ببضع كلمات وبشيء من المزاح، ثم أبدأ في الشرح.

"يرى بعض الكتاب الإيطاليين أن كتابات تشيخوف عبارة عن استلهامات أكثر من كونها نموذجًا أدبيًا"، قلت، "في الواقع، في أي اتجاه إلى السرد غير الرسمي، غالبًا ما تكون النواة هي لتشيخوف؛ فأعمال تشيخوف تهيئ الكاتب الإيطالي لفن يتحرر من المفاهيم الثانوية –مثل التجريب الشكلي أو الزخرفة الأدبية أو التعاليم بجميع أنواعها– فن، نستطيع القول، باستخدام مصطلح ربما يكون عامًا جدًا، أصيل...". أدرك أني أتحدث بسهولة وببعض الانسيابية في التعبير، كما لو كنت مستمرة دائمًا في القيام بذلك طوال هذه السنوات التي ظللت فيها، على النقيض، صامتة في أغلب الأحيان، أثناء العمل، وفي المنزل، وفي معهد اللغة والثقافة الروسية، أصبحت الآن ليس إلا سكرتيرة، موظفة لدى المكتب التعليمي؛ أنهي جميع الإجراءات للقائمين بالتدريس بالمعهد؛ وفي البيت، أعيش بمفردي، لا أزور أحدًا تقريبًا (ثماني سنوات من الوحدة الفارغة والترقب، و"السراب". *عندما نفتقر إلى حياة حقيقية...*).

لكني أتحدث بطلاقة، وأنا أسترجع إلى ذاكرتي المحتويات الأساسية لدراستي التي ستكون في الغد وأبرزها من جميع الجوانب، نظرًا للمدة الزمنية المحددة في المؤتمر، أنه سيتعين عليَ بالضرورة السكوت. في الواقع، لا أفعل شيئًا سوى إعادة تناول مقالة مكتوبة في المبنى نفسه منذ سنوات، وهي تمجيد حقيقي لمفارقة تاريخية بالنسبة لحياتي، لكن الدراسات من هذا النوع جيدة، لأنها خارج الزمان كما هي حالي، وتوافق جميع المواسم. "إذا كنتِ لن تتحدثي عن ذلك، فما الذي

ترغبين في الحديث عنه؟"، سألني دي فيليتشي على الهاتف. "أراهن أنكِ تكرستِ لأعمال الحياكة في تلك الفترة". في الواقع، لم يعد هناك حديث عن الدراسة؛ ولا حتى عن أعمال الحياكة، تلك هي الحقيقة. ولكن لمَ اتصل بي؟ أقول لنفسي إن مؤتمرًا للدراسات حول الكاتب الروسي تشيخوف قد أعاد إليه ذكراي الفريدة وقرر دعوتي؛ فرجل مثله لا يحتاج إلى دوافع أخرى، إذا اتخذ قرارًا في العموم، لا يأخذ في اعتباره أن يقدم تبريرات لأحد.

أعددت ملخص الدراسة في المساء، في شقتي المنعزلة، تحت ضوء النيون الخافت بالمطبخ، بينما كان الشتاء يجلجل خارج النافذة، عن طريق أصوت الريح والأمطار وذوبان الجليد؛ وكنت أشعر بلذة شديدة؛ فقد كان الإعداد لهذه الدراسة وكتابتها يمثلان لي مصدر إلهاء واضح ألقى بي أيضًا، من خلال سلسلة عفوية مضطربة من الأحاسيس، وسط نوايا وتوقعات، أثناء فترة إقامتي بإيطاليا التي، على الرغم من النهاية الدرامية، شحنت ذاكرتي بشكل متزايد بدوافع الحنين إلى الماضي. والأجواء نفسها التي تدور فيها قصص أنطون تشيخوف وإيقاعها، التي أعيد قراءتها باهتمام، جعلتني أتجرع الحنين إلى الماضي، وهي ليس لها علاقة مطلقًا بمضامين السرد القصصي، ولا تصرف اهتمامي الآن نحو ماضٍ ضائع بعيد مفقود، بل نحو الماضي القريب الذي بدأت تدب فيه الحياة: فلم تعد أيام حياتي التي تلاشت في أوكرانيا هي ما تهمني الآن، أو كل ما استطاع تشيخوف أن يقوله تقريبًا عن فقدان البشر اللانهائي والتوقعات المخيبة للآمال، أو سرده القصصي المثالي حول عدم الامتثال للأقدار؛ بل كان اهتمامي بذلك المخزون من الأيام في حياتي بإيطاليا التي بوسعي أن أسترجعها بيدي بطريقة أو بأخرى، والتي جسدها هذا الإيقاع السردي على هيئة موسيقى تصويرية. *في حفل زفاف أولجا إيڤانوفنا، كان هناك جميع أصدقائها ومعارفها الأقربين... في روسيا يوجد الأستاذ الفخري نيكولاي ستيبانوڤيتش وفلان، المستشار الفخري والفارس السري... لأسباب ليس هو الوقت لشرح تفاصيلها، اضطررت للعمل كنادل عند شخص يدعى أورلوف، مسؤول بمدينة طرسبورغ. كان يبلغ من العمر نحو خمسة وثلاثين عامًا... وفجأة اختفى كل شيء. كان الحاجز يرتفع ببطء. كانت ماريا ڤاسيلڤنا ترتجف، وقد نجمدت من البرد، وصعدت على العربة. خلع حارس المزلقان قبعته. "ها نحن قد وصلنا يا ڤيازوڤ"... وماذا عليه أن يتحمل في الوقت الحالي؟ ما الذي ينتظرنا في*

المستقبل؟ وفكر: "سنبقى لنرى".

"إن الكاتب الذي يستلهم من الكتابات النثرية لتشيخوف يحاول أن يجد إيقاعًا وتنغيمًا لأسلوب حزين دفين، فلا يوجد نماذج منها في إيطاليا في الأعمال النثرية للقرن التاسع عشر، ولكن في الشعر فقط..."، أخذت أشرح. "أنصتوا إلى نهاية القصة التي تحمل عنوان في *البيت*؛ فالبطلة قررت أن تتزوج من رجل لا تحبه، لتتكيف مع الحياة في بلدها، وها هي تقديراتها: 'وذهبت إلى الريف مرة أخرى'"، كنت أقرأ من نسخة للقصص باللغة الإيطالية استعرتها من إستير؛ "*وبينما كانت نسير إلى حيث تأخذها قدماها، قررت أنها بمجرد أن تتزوج، ستنشغل بالأعمال المنزلية، ستعتني بكل شيء، ستُعلِّم، ستقوم بكل ما تفعله النساء الأخريات في بيئتها؛ وشعورها ذاك بعدم الرضا المستمر عن نفسها، وعن الناس، وهذه السلسلة من الأخطاء الفادحة التي ترتفع أمامنا أحيانًا مثل الجبل، فبمجرد أن تلقي نظرة على ماضيها، ستعتبر كل هذا جزءًا أصيلًا من حياتها، وكانت من نصيبها ولم تكن تتوقع حياة أفضل منها... لأن الأفضل لا وجود له! فالطبيعة الساحرة، والأحلام، والموسيقى تعزف شيئًا والحياة الواقعية شيء آخر. ومن الواضح أن السعادة والحقيقة موجودتان في مكان ما خارج الحياة... ليس على الإنسان أن يعيش، عليه أن يندمج كليًا في هذه البراري الوفيرة، التي لا حدود لها المتشابهة الخالدة، بأزهارها، وأهل كورغان والأفق، وعندئذ سيكون بخير...*"". وأغلقت الكتاب. "بالتأكيد ينبغي أن تقرؤوا النص باللغة الأصلية"، قلت لهم، "لكن على أي حال، حاولوا حاليًا في التفكير في شيء مماثل في الأدب الإيطالي الذي درستموه بالمدرسة"، هذا ما طلبته منهم. لا أحد يتفاعل؛ يبدو عليهم الانتباه لكن ليس بوسعي أن أفهم مدى اهتمامهم بمحتوى المحاضرة وتجاوبهم، وأرى الالتزام الدؤوب المنضبط هو السائد. في هذه الأثناء، خارج نوافذ قاعة الدرس، خلف قراميد الأسقف القديمة المتراكمة، التي كانت تنخفض عن مبنى الجامعة، بين الأسلاك الهوائية والغرف العلوية، أصبغ النهار العاصف على السماء زرقة براقة.

هناك تبادل مع البيئة الخارجية، ومحاضرتي تتنفس هناك في الخارج، لكن بدورها ستضفي شيئًا في تلك المساحة المفعمة بالألوان. أرى الطلاب في ريعان شبابهم، ومن الواضح أن ملامحهم ستتشكل على مر السنين، أحدهم يبدو كما لو كنت أعرفه من قبل، فتى شعره مدبب، نظرته طيبة، ووجهه مألوف لي تمامًا،

وبوسعي القسم بأني التقيت به من قبل؛ لكن يبدو أن المسافة بيني وبين هؤلاء الطلاب قد زادت ولا أظن أنها مسألة تتعلق بالعمر، فأنا كنت وما زلت امرأة ناضجة أمامهم؛ وهناك المزيد: من المحتمل أني فقدت جزءًا من استعدادي الطبيعي للتعاطف مع الطلاب؛ وعلى الأرجح، إن عدت إلى العمل كمعلمة، سأكون أكثر جفاءً معهم. وفي حقيقة الأمر، كان سلوك دي فيليتشي، أستطيع القول، حذرًا، واحتفاظه بهذه الخشونة سمح له كمعلم بمقاومة استهلاك الزمن، إذا كان لا يزال صارمًا كما أتذكر... لا أدري... توجد نزعة جديدة بداخله؛ لا ينبغي نسيان أنه بكى أمام إستير؛ ولا بد أن السنين قد حفرت شقًا، أو فتحة نحو التعاطف؛ وأود أن أرى كيف يتعامل معه هؤلاء الطلاب المراهقون الجدد، ويتملكني الفضول لملاحظة النتائج العملية لتحوله الداخلي، لكن في الحقيقة كان لقاؤنا هذا الصباح قصيرًا جدًا ولن يُتاح لنا الكثير من الوقت.

أخذت استراحة، وأعطيتهم بعض الراحة؛ اتكأت على عتبة من الرخام بينما نهض أحدهم، وآخرون يتحدثون فيما بينهم؛ نظرت من خلف زجاج النوافذ، وتابعت نقر الحمام على حافة المزراب؛ في الواقع لم يكن سهلًا عليَ، وفي تلك اللحظة أدركت أنني أتصبب عرقًا من المجهود. على أي حال، في وقت الالتزام هذا الذي لم يخطر على بالي، أستشعر أنه على الرغم من المفارقة التاريخية، وعدم الاستقرار، وعدم الكفاءة في هاتين الساعتين للدرس (وبعض القناعات التي توصلت إليها حول الإمكانات الحقيقية للأدب في شبه السيطرة على مصير الإنسان)، فإن العمل الفكري في حد ذاته وتوصيله إلى فئة من الطلاب ما زالا يمثلان لي مغزى للعالم الذي أجابهه.

دنت مني إحدى الفتيات.

"عذرًا"، قالت (لها ابتسامة جميلة، عينان لامعتان مؤثرتان)، "لن أسال عن الأدب الإيطالي؛ ولكن ما رأيك في تأثير تشيخوف على الأعمال السردية لكاترين مانسفيلد؟".

"أتعرفين هذه الكاتبة؟"، سألتها.

"تعجبني كثيرًا"، أجابت.

«أعتقد، لكنه انطباع فقط، أن تشيخوف بالنسبة لمانسفيلد يتنمي إلى الماضي، وأنه أب لها، أكثر من كونه معلمًا».

«لأن مانسفيلد أكثر قربًا من الحداثة، أليس كذلك؟» سألتني واحمر وجهها.

«ربما،» أجبتها في ابتسامة. «وماذا يعجبك فيها تحديدًا؟»، سألتها.

«لا أدري... أعتقد الإحساس»، أجابتني.

III.

لكن ليس من السهل أخذ راحة من عالم الاحتياج والإرهاق لمن غرق فيه، مثلي، حتى عنقه. بعد الدرس، وخارج القاعة، عند زاوية من الممر، تكاد تكون مختبئة خلف خزانة ملفات عالية من المعدن، تفاجأت بأن ليزاڤيتا تنتظرني. رأيتها بينما كنت أعطي الإرشادات الأخيرة حول المؤتمر لبعض الطلاب الذين أوقفوني عند الباب؛ كان حضورها غريبًا وغير متوقع على هذا النحو، في ضوء ضبابي مائل، حتى إنني تعرفت عليها بالكاد؛ ترتدي سترة ثقيلة تبتلعها، لا تتناسب مع جسمها البدين القصير وهذا الفصل من العام، وتبدو ممتلئة أكثر مما كانت عليه في المنزل عندما رأيتها؛ وقد أصبغ البكاء الحُفرَة على عينيها ووجهها. من يدري ما الجهود التي بذلتها حتى تتمكن من العثور عليّ، وخاصة لغتها الإيطالية أيضًا الضعيفة جدًا. إنها تقيم في إيطاليا منذ أكثر من عام ولكنها لم تتعلم بعد كلمة واحدة؛ قد لاحظت ذلك بالأمس بينما كانت تتحدث على الهاتف مع شقيق ماريانچيلا، وكانت تبذل مجهودًا ضخمًا في التحدث والفهم، تهز رأسها، ولا تفهم (ومن ناحية أخرى كانت تمارس اللغة قليلًا مع من ترعاها). ولهذا السبب أيضًا، في الحقيقة، هي هنا. شرحت لي أنها بحاجة إلى من يساعدها في التحرك والتواصل – لا بد أن البروفيسور مع ضيوفه؛ ويتحدث مع آخرين عن أمور لا تتعلق بي؛ وعلى أي حال مكتبه مغلق، وإذا سارت الأمور على ما يرام، لن ينتبه أيضًا إلى هذا القدوم المفاجئ. في الواقع مشكلة ليزاڤيتا مأساوية للغاية والحل لا بد أن يكون عاجلًا، لكي تحصل على تصريح الإقامة، الذي كانت تحدثني عنه الليلة الماضية، يحتاج إلى وثائق تثبت وجودها في إيطاليا خلال هذا العام، وهو بالضبط ما كان عليها أن تتجنبه طوال هذا الوقت. ودون هذه المستندات، لن تحصل على التصريح ولن يكون شقيق ماريانچيلا على استعداد لأن يدفع دون التأكيد بالاعتراف بها. وانتظر الرجل العجوز طويلًا ليحسم الأمر: غدًا ستنتهي صلاحية الطلب والدفع، أخذت تشرح لي وهي تبكي.

«لم أرَ ابنتي منذ عام»، أضاف؛ في تلك الأثناء خرج بعض الطلاب من القاعة، ورأوها. «ألم أتعامل بالحسنى مع ماريانچيلا؟ ألا أستحق هذا؟" لكن شقيق ذات المئة من عمرها يتجاوز الثمانين هو أيضًا، وهو ليس ميسور الحال. إن تردده أمر

مفهوم جدًا؛ فالرسوم التي يلزم دفعها ليست قليلة؛ ولا يمكن سدادها بسهولة بلا ضمان، كما أنه ليس هينًا عليه أن يفهم ما يمكن عمله. في الواقع ليس من السهل عليَ أن أتفهم ذلك أنا أيضًا؛ فعندما يكون القانون متناقضًا على هذا النحو، يقف الإنسان مرتبكًا إلى حدٍ كبير. "ذكرت من قبل أني سأدفع جزءًا من المبلغ"، تابعت ليزاڤيتا؛ وفي الوقت نفسه، عانقت كتفيها ورافقتها على طول الممر، نحو باب الخروج، وأنا أشعر، لكي أكون صادقة، ببعض الحرج من هاتين السيدتين الأجنبيتين البائستين والاضطراب الذي أحدثتاه في هذا المكان. قدمت إليها إستر التي التقينا بها بعض المناديل الورقية، وهي تتحاشى بلطف أن تسأل عما حدث لها. توقفنا خارج القسم، عند الجزء المسطح للدرج الكبير؛ وفي هذا المكان أيضًا، يمرُ الأساتذة والطلاب بين الحين والحين. انزوينا في ركن، بين نصفي عمودين من الرخام المُخدد. في الواقع، كانت ليزاڤيتا قد وضعت خطة لها في ذهنها وتحتاج فقط إلى مرشد ومترجم. فالأمر يتعلق بمؤسسة خيرية تكون مستعدة للتصديق على أنها تلقت مساعدة أثناء فترة إقامتها في إيطاليا، مع أن هذا غير حقيقي. فلديها بالفعل إيصال من مركز صحي قامت فيه بجلسات للتجميل، ولكن إحدى صديقاتها، في ظروفها نفسها، قالت لها إن المؤسسة الخيرية هي الضمان الأكبر.

"هل ترددتِ على مركز صحي؟"، سألتها، فالحالة تبدو لي جديدة. ومن الصعب تخيلها في أحد هذه الأماكن، علاوة على أنني أتصور أنهم يقدمون خدمات باهظة الثمن. ولكنها تسحب مظروفًا من حقيبتها المصنوعة من الجلد الصناعي الباهت المشقق وتُخرِج ورقة وتريني إياها؛ ربما تريد في قرارة نفسها أن تتأكد قبل كل شيء أنها مكتوبة بوضوح. وأقرأ بصوت مرتفع: أربع جلسات من التدليك (المساچ) والعلاج العطري. نظرتُ إليها بتعاطف. لكنها طوت الورقة وأعادت كل شيء إلى مكانه بجدية شديدة واهتمام؛ فهي الوثيقة الوحيدة التي تمتلكها في الوقت الحالي. كان من الأفضل أن نخرج، ونقدر بهدوء ما يمكن القيام به. هبطنا الدرج، وخطواتها كانت غير متزنة ونفسها ثقيلًا بسبب الكيلوات الزائدة في وزنها. رأيت الوجه الرقيق الطفولي الذي لفت انتباهي في الليلة الماضية، لكن جسمها ثقيل، إلى جانب أنها منغمسة في فكرة واحدة تجعلها تتصرف بحماقة، إلا أنني أشعر بارتباك شديد وسخط بعض الشيء لما يُطلب منها. وهي، على أقل تقدير، حالة فريدة؛ فهذه الفتاة كانت تجالس امرأة مسنة تبلغ من العمر المئة لمدة خمسة عشر

شهزا، ليل نهار، تغير لها الحفاضة وتُلبسها إياها ألف مرة، تُعدُّ الحساء لها وتُطعمها، هما الاثنتان وحدهما، في منزل قديم تم تأثيثه قبل الحرب؛ وكانت تنام بمفردها كل ليلة لمدة خمسة عشر شهزا، وتذهب إلى الحمام في ممرٍّ ضوؤه خافت لشمعة صغيرة تحت الصورة المقدسة، مع الصفير المُحمل بأنفاس محتضرة لجليستها؛ وأفاقت وليس لديها أي إمكانية أخرى سوى البقاء في ذلك المنزل طوال اليوم، بينما تكبر ابنتها بعيدًا عنها؛ لكن هذا الذي يمكن أن يثبت للدولة ما تطلبه منها في الوقت الحالي، ويدفعها حتى اليوم للاختباء مثل المجرمة، هو مجرد وجودها في مكان أشبه بغرفة انتظار في رواية *ألف ليلة وليلة*، حيث تعتني فتيات حسناوات لأربع مرات، وفي ساعات الراحة القصيرة، بجسدها العاري الممتلئ الذي يتصبب عرقًا. وافقت على مرافقتها، على مضض. مررنا بشارع ماثيوثي، وتابعت بكل أسى الهروب السريع للمباني والأزقة، التي كنت أرغب في أن أتنزه بينها في سعادة غامرة في هذا اليوم المشرق الصافي. وددت لو توقفت لأشاهد زجاج المتاجر، وأدخل في واحد منها، وأستعيد بالمال القليل الذي كان معي، طيشًا كان ممنوعًا عني في الماضي. فضلًا عن ذلك، لن يتأخر دي فيليتشي وضيوفه كثيرًا. هذا لا يعني أنني أرغب في الدخول في جدال مثلما حدث هذا الصباح، مع البروفيسور الذي يلتقط أنفاسه بعناء؛ وإن المخاطرة بوجودي خارج الجامعة أستشعرها في كل خطوة؛ وإلا إذًا، ما الذي أتى بي إلى هنا؟ قبلت الدعوة في قلق، ولكن دون تردد، قبل شهرين. كنت في حجرة المكتب عندما تلقيت مكالمة من دي فيليتشي، شكرتُه وحيّيتُه وأنا لا أصدق، وقد اتخذت قراري؛ تركت أوراقي، وشاهدت عبر النافذة سير بعض المارة في الشارع الجانبي وفي الظل. كان الجو شديد البرودة، وعلى جانبي الشارع كانت توجد أكوام من الثلج الرمادي: إنها معاناة مدينتنا طوال الشتاء، والريح التي تضرب بقوة نذيرًا لسقوط الثلج، أو بالفعل متشبعة بالثلج، في المساحات المفتوحة المطلة على النهر، وعلى جوانب الآثار أو بطول الطرق المضببة للأبد. فقد كان والدي يعمل في جمعية تعاونية لتوزيع المواد الغذائية في شارع يشبه ذلك الذي يطلُّ عليه مكتبي، وهو متفرع من شارع بيترا ساخيداشنوخو، على بعد عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام من منزلنا، بمنطقة سيڤشانكو، حيث كنا نقطن بها وقتذاك؛ وكثيرًا ما كنت أذهب لزيارته؛ فقد قضيت جزءًا من طفولتي خلف زجاج واجهة الجمعية التعاونية. عادة ما كان يتم اقتحام

المُجمع، وكانت هناك طوابير انتظار طويلة، لكن في بعض الأحيان لم تكن تأتي الإمدادات من السلع؛ فكان على الزبائن أن ينصرفوا، ووالدي لا بد أن يبقى للمساء؛ وكانت ساعات مملة، كان يدنو مني، يتكئ بيدٍ واحدة على زجاج الواجهة، وننظر معًا إلى الشارع الخالي من المارة والثلج الذي يتساقط ويخبط الزجاج، وأكوام الثلج في زوايا الشارع، التي يصعب ذوبانها. أتذكر نظرته الشاردة إلى الشارع ثم التفات عينيه إلى الساعة، وعلاقتنا القوية في تلك الأمسيات الثلجية، في ذلك المكان الاجتماعي. إن الشتاء في بلدي لا ينتهي أبدًا؛ فعندما تلقيت المكالمة، كانت عملية الذوبان قد بدأت للتو؛ ومع ذلك، مثل الحيوان في الربيع، كانت تنبعث بالفعل بداخلي صحوة غريبة لاستعادة الحياة على المستوى البدني والعاطفي. نظرت إلى مكتبي، وأنا أعود إلى البيت، ثم شوارع مدينتي، وفي النهاية شقتي المهجورة، مثلما نشاهد أماكن سوف نتركها للأبد؛ تناولت العشاء ويغمرني شعور بالتحرر، بينما في الخارج كان الظلام العاصف يشوش على ضوء مصباح الشارع، وراء جدار السياج المتهالك المتقشر. ذهبت لأبحث عن أوراق دراستي في مجلد موضوع في درج بغرفة كاتيا، وفي الضوء الخافت للغاية، تصفحت ملاحظات ومقالات بحثية كنت قد جمعتها في إيطاليا، وأنا أنثرها على الأرض، لكي أفهم من أين يمكن استئناف حديث قد تُرِكَ منذ فترة طويلة. فتحت خزانة الملابس، وأخذت أفكر بألم في ثيابي الربيعية البالية، واحد تلو الآخر. في الأيام التالية، عشت كما لو أن الأسوأ في حياتي قد مضى. ذهبت لشراء هذه البدلة من سوق الملابس المستعملة، الذي يقام على ضفة النهر يوم أحد في الأسبوع؛ مشيت على الضفة التي تعصف بها الريح؛ وكان نهر الدِّنيبر يتدفق بلونه الأخضر وبكثافة في مجراه الفسيح تحت الجليد المجروش؛ وكانت نزهة لم أقم بها منذ وقت طويل، وصعدت حتى وصلت إلى الموضع الذي يطلُّ على مجرى النهر والمباني الشاهقة: كانت الريح عاتية وأخذت أتذكر دون ألم أو حنينٍ تقريبًا، ولكن بإحساس عميق بجمال الحياة، بعض الأيام المماثلة التي كان أغلبها في صباح أيام الأحد، عندما كنا نتمشى أنا وزوجي متأبطين ذراعينا ونمسك كاتيا بأيدينا، بطول ذلك المنتزه الفسيح، أمام المباني التي كان يقع عليها أيضًا وقتذاك الضوء الخافت للشمس المذبذبة أثناء شروقها، ثم على ممشى المارة للجسر المزدحم البانورامي الذي يربط شطري المدينة.

إن الجو جميل في ميدان بياتسا ديللا ليبِرتا؛ فالعديد من الطلاب يجلسون في الهواء الطلق، على درج الكنيسة التي يغلق أحد الجوانب الأربعة؛ ويُسمع هديل الحمام، ورفرفته، ونقره المذهل. وأشعة الشمس قوية صافية في السماء تنعكس على بقايا الحبوب وبين ظلال المباني. أصبحت أكثر هدوءًا الآن، وعيناها صافيتان؛ وفي نقائهما الذي يميز مواطني دولة قيرغيز، يتمتعان بلون السماء المشرق. إنها تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، أي تقل عامًا عن عمر ابنتي. وبوسعي أن أتخذ سلوك الأم معها؛ وقد يخطر بمخيلتي أنه بوسعي أن أسترد معها جزءًا من دَيني في هذا العالم، والالتزام المستحق على هذه الأرض نفسها منذ سنوات مضت؛ ليس من قبيل المصادفة أن يحدث هذا هنا تحديدًا، إنها يدٌ تعرف الحقيقة وتوازن الأقدار. لكني أشعر بجانب ليزاڤيتا بأنني امرأة أنيقة ومثقفة؛ فأنا أساعدها لأنها تطلب مني ذلك وبسبب قانون التضامن الإنساني، غير أني أود أن أفعل شيئًا آخر. على أي حال، لا بد أن أكون في الساعة الرابعة، إن لم يكن قبل ذلك، بقاعة المؤتمرات بالجامعة لبدء المؤتمر؛ لذا سأحثها على الإسراع.

١٧.

ذكريات قديمة زاخرة تمرُّ بداخلي، ولا أعرف السبب؛ الآن وبعد أن نويت تحرري من مدينتي، في غمرة الأمور الجديدة التي أرغب في الانسياق إليها، يأتي ماضيَّ البعيد ليطلب اللقاء. وبينما أهبط هذا الدرج مع ليزاڤيتا، تعاودني ذكرى المتجر حيث كنت أنتظر والدي حتى ينتهي من ورديته، في الشارع الوحيد الذي كنت أصل إليه وأنا أصعد الدرج سريعًا عند ضفة النهر مرورًا بشارع براتسكا، الهادئ المصفوف بالأشجار؛ وحركة إصبع السبابة في يد أبي التي تُبعد كم مئزرته وتكشف وجه الساعة، أثناء فترات ما بعد الظهيرة الشتوية المُملة، بينما كانت الطفلة البريئة، الحالمة، الساذجة، تجلس أمام زجاج الواجهة... لا تبعد تلك الأماكن عن المعهد الذي أعمل به، وسأضطر إلى العودة إليها لأرى ما الذي تغير على مر السنين.

في غضون ذلك، وصلنا إلى محطة الحافلات، وجلسنا على مقعد عند السور، أمام حركة المرور التي تتدفق في الطريق، الواسع المنتظم المُنظم في اتجاه واحد للطريق الدائري، فقد أخبرونا أن المركز الخيري كاريتاس تم نقله خارج المدينة، على بعد نحو أربعة كيلومترات، مع مكتب الهجرة في مقر الشرطة، وسوف تمر الحافلة خلال ساعة. احتمينا بأشجار الزيزفون من شمس الظهيرة الساطعة، وكان الهواء عليلًا مبهجًا، وذكرى مناخ هذه الأرض تنعشني كأنما تداعبني. كانت ليزاڤيتا صامتة، وتثق في أنني سأساعدها وتنتظر؛ تنظر أمامها نحو السيارات التي تمرُّ والأشخاص الذين يسيرون على معبر المشاة أثناء إشارة المرور الخضراء، في مجموعات صغيرة متفرقة؛ وبشرتها البيضاء الجميلة، التي يحددها بريق أوراق الشجر المظللة، أصبحت الآن مستسلمة في تعبير عن سلام عظيم يريح نظرتها، لكن تضم بيديها الممتلئتين، حقيبتها المتهالكة على ساقيها. وأنا، على النقيض من ذلك، لا أنتوي مرافقتها؛ فالمؤتمر على وشك البدء، وعلى الرغم من أن ورقتي البحثية مجدولة في يوم الغد، فليس لدي النية في تفويت الافتتاحية؛ لذا، وبحرص شديد، حاولت أن أشرح لها. لكنها غيرت تعبير وجهها، وعادت جادة قاسية. بودي ألا تكون هناك أي صلة بهذه الفتاة. أصرُّ على ذلك، وأحاول أن أفهمها أنه ليس في استطاعتي مساعدتها، لكنها تهزُّ رأسها، وعلى الرغم من حالة الاعتماد الكبير عليَّ التي كانت عليها، فقد كانت غليظة مستبدة في يأسها الصامت. كان عليها أن تصل إلى ابنتها، ودون هذا التصريح سيصبح كل شيء صعبًا معقدًا.

وأقول لنفسي إنها سترحل في كل الأحوال، ولن يسمحوا لها بالعودة. هذا أفضل. من الأفضل أن تبقى في أرضها وتظل مع ابنتها؛ وهناك شيء ما سيأكلونه. "ليس بوسعي مرافقتك"، كررت لها، لكني ظللت جالسة تحت وطأة إجهاد مفاجئ، يكاد يكون إعياءً. "سوف يساعدونك، فهم موجودون تحديدًا لمساعدة من يواجه صعوبات"، قلت لها، لكني في الوقت نفسه لن أنصرف؛ غير أن الوصول إلى الجامعة يستغرق بعض الوقت، وفي كل الأحوال سوف أصل في وقت متأخر. في الحقيقة، لم تكن لديَّ أيضًا رغبة في الذهاب إلى الجامعة، لأجد نفسي وحيدة بين المتحدثين الآخرين، وبلا شك كلهم متكاملون وحاضرون لسبب وجيه، وإلى حدٍّ كبير متغطرسون. جلست على هذا المقعد، والبدلة ترتفع عن ساقي، ضيقة للغاية، وأخذت أفكر في نفسي بين المشاركين في المؤتمر، ككائن يستدر العطف. إن الموقف برمته يزعجني وفي الوقت نفسه يقلص معدتي. أشعر، رغمًا عني، أنه لا بد أن أضع بحسباني التنازل على أقل تقدير، لأنه في النهاية، وأنا أقول لنفسي، على الأرجح لا يمكن لأي مناسبة في الوقت الحالي أن تحمل لي شيئًا طيبًا؛ بينما لا يزال شباب ليزاڤيتا يترك لبعض الفرص أن تتدخل في حياتها.

"أليس من الأفضل أن تعودي عند ابنتك إلى الأبد؟"، سألتها.

"نحن فقراء للغاية"، أجابتني.

"وزوجك؟"، واصلت.

"غير موجود". وهذه هي الحال؛ ففي أرضي تعول النساء أنفسهن. والغالبية العظمى منا نساء وحيدات وليزاڤيتا، الشابة الصغيرة، لن تفلت من هذا المصير، فقد تزوجت صغيرة جدًا من رجل عنيف مدمن للكحول؛ طُلِّقت وتم هجرها، أو أرملة؛ ومن ثم، تحملت عبء أطفالها لأنه لم يفرض أحد التزامات على الأب، على افتراض أنه لا يزال على قيد الحياة. في يوم من الأيام، تركت ابنتها مع جديها، ودعتها من نوافذ حافلة صغيرة حالتها سيئة؛ وقطعت رحلة لعشرات الساعات، مع بضع استراحات قصيرة، لتصل إلى إيطاليا. أملت في حياة أفضل وفي الوقت نفسه ضحت بشبابها؛ إنها ليست من بين أولئك اللواتي يبحثن في إيطاليا أيضًا عن رجل ودود لتبدأ معه من جديد. بقينا صامتتين نراقب الطريق. اقترب رجل سنغالي نحيف، يرتدي بأناقة شديدة بذلة رمادية فضفاضة بعض الشيء متهدلة

على جسمه الرفيع؛ وطلب منا معلومات عن دورة الحافلة التي ننتظرها نحن أيضًا؛ فهو أيضًا يتوجه إلى المركز الخيري كاريتاس. كان معه حقيبة صغيرة من الورق المقوى، لا بد أنه قد وصل لتوه، لكنه يفهم اللغة الإيطالية ويتحدثها. ينظر إلينا ويبتسم وعيناه السوداوان تعبران عن ملاطفة واحتياج إلى مشاركتنا الحديث؛ فهو لا يعرف شيئًا عن هذه المدينة، وسيلتقي في مركز كاريتاس مع بعض معارف له يعيشون في الريف. وقف أمامنا، في استسلام. أفسحت له مكانًا، فجلس إلى جواري على المقعد المواجه للطريق؛ تفوح منه رائحة نفاذة. أعلم جيدًا حالة الارتباك الأولى؛ فأيامي الأولى في هذه المدينة لم تكن سهلة، على الرغم من مساحتها العمرانية غير المعقدة ومناخها اللطيف؛ وعلى وجه الخصوص، وجود ظل من التحفظ في أي أحاديث أتبادلها مع الناس، ولم يكن يتوقف أحد طويلًا على الرغم من معرفتي الجيدة باللغة، فقد كانوا يخشون أن أستغل اهتمامهم.

"لديهم روح الضيافة مثل سيربيروس(2)"، كنت أقول لابنتي، ودائمًا ما كنت أحاول ألا أعطيهم وزنًا، لكنها كانت تنشغل، ففي البداية ما كنت أخفي عنها شيئًا. في ذلك الوقت كنت أتصل بها من كشك الهاتف الذي كنت أجده دائمًا خاليًا في وقت العشاء، في الشارع الرئيس للحي الذي تقطن به ماريانچيلا، وإلى جواري نبات التمر حنة؛ وكانت أمسيات صافية. على الطرف الآخر كانت هي كأنما تجلس في الغرفة الأخرى، واهتمامها المُقلِق نفسه. وفي كل مرة، كان الاهتمام المتبادل اليومي بيننا لا يزال يبدو طبيعيًا، حتى وإن كنت أعيش تجربة لم تشاركني هي فيها، ولأول مرة منذ ولادتها. ثم بدأت في عدم الاتصال بها شيئًا فشيئًا؛ فقد رأيت أن بعض الأحداث اليومية الصغيرة ليس من الضروري أن تتابعها، فضلًا عن أنها لا تهمها كثيرًا... بالإضافة إلى تكلفة كل مكالمة. أما هي، فقد فقدت رغبتها الشديدة في أن تحكي لي الأمور التي كانت تمر بها في مرحلة المراهقة منذ وقت مضى. فقد كانت هناك أوقات تنطلق فيها بالحديث، لكن حكيها كان دائمًا ما ينصرف عن الهدف منه بعض الشيء، فكانت تتناول أحد الجوانب وغالبًا لم تكن تصل إلى غايتها من الحديث، وكان ذلك يعتمد أيضًا على ظهور القمر في تلك الليالي. فجأة أتذكر تلك المكالمات الهاتفية المسائية، وأنا داخل كشك الهاتف، في الشارع الخالي من المارة الذي تفوح منه الروائح في الحي الذي تقطن به ماريانچيلا وقت العشاء، وإحساس بالفزع من أشياء فُقِدت دون حذر. أتذكر عندما كانت تتصل بنا باستمرار،

وهي صغيرة، من المخيمات الصيفية، وتقدم لنا وصفًا عن أول إجازات لها بعيدًا عنا وبكل التفاصيل، وإن كانت غير واضحة أو مترابطة؛ كنا نتبادل النظرات أنا وزوجي ونقول لبعضنا، إنها هي، في كل مرة يرن فيها الهاتف: "أنا..."، كانت تقول، بصوت خافت مشتت، "أنا بخير. الآن... سنذهب لتناول الغداء..." وتغلق سريعًا. كان من الأفضل أن أستمر في الاتصال بها وبكل عزم، دون تردد، والتشبث بإصرار بالفرص التي كانت وقتذاك لا تبدو لها شيئًا غريبًا في أن تمنحني إياها. أمر لا مفر منه: إن العودة إلى هذه الأماكن يعيد فتح الباب بإحساس من الأسى، على الرغم من كل الاستعدادت النفسية الجيدة بداخلي. صعدت مع ليزاڤيتا الحافلة وجلست بجوار النافذة مثل الإنسان الآلي. وعلى الفور، وكانت محض مصادفة، بدأ هاتفي المحمول يرن؛ هذا الهاتف رخيص الثمن لا يتصل بي أحد منه قط؛ أخرجته بعناء من الحقيبة لأجيب.

"ماذا حدث لها؟"، سألني البروفيسور في حيرة.

" ماريانچيلا، السيدة العجوز التي كانت *تستضيفني*، تعرضت لضيق في التنفس"، هذا ما خطر ببالي على الفور.

"وماذا إذًا؟"، سألني. "هنا بدأ المؤتمر، انتهت التحيات والعروض التقديمية وها هو أول متحدث؛ تعالي في الحال واتركي العجوز تتنفس في سلام... ولكن ما هذا الضجيج؟" وأغلق الهاتف قبل أن أستطيع إضافة أكاذيب أخرى. ولا أدري ما إذا كانت المكالمة أم قيادة السائق المتهورة إلى حدٍ كبير كان له التأثير الأكبر، لكن معدتي في حالة اهتياج كامل وشعور ببغض يراودني تجاه ليزاڤيتا حينما هبطنا إلى ساحة مقفرة، أمام مبنى ضخم متداعٍ يشبه سجنًا قديمًا مهجورًا، وسط حقول خضراء مشرقة. والمشهد الأخير بأكمله، في واقع الأمر، على المنعطف المتعرج، بمناظره الطبيعية الجبلية التي تنفتح وراء أشجار البلوط الضخمة المصطفة بطول الطريق، كان من الممكن أن يصبح رائعًا، إذا ما استطعت أن أستمتع به. لكن المكالمة الهاتفية أزعجتني كثيرًا. إذا سارت الأمور كلها على ما يرام، فلن أصل إلى المؤتمر إلا بعد الانتهاء من أعمال اليوم الأول، لكن ربما بوسعي التظاهر بأني وصلت في ساعة مبكرة. ومع ذلك، فإن العالمين يتباعدان بعضهما عن بعض؛ فهذا الميدان الفسيح الذي يتردد عليه الكثيرون، وحيث توجد به سيارات قليلة متوقفة، ربما

هو أحد الأماكن المهجورة عند أطراف مدينتي، لو ما كان هذا الضوء الساطع. كان السنغالي منغمسًا بجانبي هو أيضًا في هذا الضوء الغريب، منحنيًا قليلًا بل ملتويًا، يأخذه المكان الجديد، يبدو متعبًا الآن، ويكبر عما رأيته من قبل: أراه رجلًا ناضجًا، وُضع على المِحك، وقصة وراءه؛ غير أنه طوال الطريق، كان ينظر إلى الخارج باهتمام، ويسأل الراكب المجاور له عن بعض الإرشادات. كنت أستطيع من مقعدي رؤية وجهه النحيف الصغير وهو يشاهد بتركيز، من وراء النافذة، الضاحية، ثم البيوت الريفية، والشوارع، ومفترق الطرق مع لافتات للقرى المجاورة؛ كان يحاول أن يبني لنفسه خريطة ذهنية قد تساعده. طلبنا معلومات من ثنائي من الشباب يبدوان من المغرب، ولا بد أنهما قد طُرِدا ويعرفان المكان؛ قادانا عبر ممر مظلم إلى بهو كبير، شيء أشبه بالمخزن الفارغ: والضوء يسقط من أعلى، مائلًا وغير كافٍ، من خلال نوافذ صغيرة مثل فتحات التهوية، على الرجال النساء والأطفال المصطفين أمام طاولة، نلمح من ورائها شابين يوزعان طرودًا؛ وفتى آخر يجلس أمام جهاز كمبيوتر محمول؛ وتلوح فوق رؤوسهم عبارة "الإحسان يغير الحياة"، على لافتة حمراء متهدلة؛ وبطول الجدران الخشنة، توجد صناديق وأكياس مكدسة تعطي انطباعًا بخلل في التوازن، وفي الغرفة الكبيرة يتوغل إحساس بالجمود والإلزام، تكشفه تحديدًا نظرة الناس في الطابور. ظللنا واقفين لبعض الوقت في تردد، ثم ظهر الثنائي ويبدو أنهما قد نسيانا وأخذا بالفعل مكانًا في الصف، وأشارا إلى باب مكتب يطل على بهو المدخل، حيث يمكننا التحدث إلى أحد الأشخاص. توقف السنغالي معهما، وصافحنا باليد - رجل بشرته ناعمة جافة باردة؛ حسن الخلق ومستعد لتقديم تضحيات، ولكن مع التوقعات، أرجو أن يكون على ما يرام.

في المكتب، كان قسيس وفتى يعملان أمام طاولة مليئة بالأوراق. شرحت الموقف بإيجاز للقس الذي أحسن استقبالنا، ولكن هيئته -كان طويل القامة نحيفًا مشدودًا- ونظرته المترددة توحيان بأنه ليس لديه وقت كبير وعليَ أن أسرع؛ كان ودودًا، لكن جدول أعماله المزدحم جعله شاردًا؛ وسرعان ما أخبر الفتى بإعداد الشهادة. انشرح صدري. وكانت هذه الغرفة الصغيرة أيضًا مليئة بالصناديق، لكنها أكثر تهوية وإضاءة، وتطلُّ على الفناء. سأل الفتى ليزاقيتا وهو يجلس أمام الكمبيوتر، عن اسمها ولقبها وتاريخ ميلادها وأخذ يسجل البيانات.

"إنها غير مسجلة"، أخبر للقسيس الذي عاد ليتصفح الأوراق.

"لمَ لم تسجل بياناتها؟"، سأل القسيس ورفع عينيه وهو ينظر إليَ.

"هذا ما كنت أوضحه لسيادتكم بالضبط"، أخذت أشرح له، "إنها لم تأتِ قط لتستلم طرودًا، لكنها بحاجة إلى شهادة لتوثيق وجودها بإيطاليا في هذه الفترة وللحصول على التصريح".

"هذا غير ممكن"، أجاب بشكل قاطع، وصرف نظره عنا واستأنف قراءة أوراقه. جمدني رفضه ولم أدرِ ماذا أقول، رأيت أني طلبت شيئًا غير قانوني لا بد أن أخجل منه، ومع ذلك أصرُّ.

"أستطيع أن أشهد بأنها كانت موجودة بالفعل هنا في هذه الفترة. لديها ابنة تبلغ من العمر عامين، وتحتاج إلى العودة لرؤيتها"، أضفت بصوت يختنق في حلقي.

"مستحيل"، أجاب وهو منزعج وانصرف لعمل آخر. نظرتُ إلى ليزاقيتا التي فهمت شيئًا ولوت أنفها وفمها في ذعر أعرفه الآن؛ فتأهبنا للانصراف. لكن القسيس أوقفنا عند الباب. "سيدتي"، ناداني؛ ونظرته القاتمة هذه المرة ثابتة عميقة؛ "هذه مؤسسة خيرية؛ وكثير من الناس في احتياج إلينا. ولا بد أن نعمل بشكل قانوني، وإلا فسيعود بالضرر على من يطلب منا المساعدة، يجب أن نواجه المؤسسات بأمانة ومصداقية".

"إنها تعلم أن هذا الإجراء غير منطقي"، قلت له، لكنه نظر إليَ وهو يفكر.

"هنا في الخلف، في المقر الآخر"، استأنف، "يوجد مكتب الهجرة التابع لمركز الشرطة، ولهذا أيضًا نحن مدعومون هنا...". ثم نظر إلى الساعة وأضاف: "ما زال مفتوحًا لمدة نصف ساعة أخرى، وستغلق جميع المكاتب في السادسة والنصف؛ أسرعي، اسألي عن إيلينا، إنها سيدة خبيرة، وبإمكانها تقديم بعض النصائح لكِ".

كان هناك باب مفتوح على مصراعيه، يقطع الضوء الساطع في عتمة الممر، ويطلُّ على فناء مشمس؛ وعلى الجهة المقابلة، يوجد مبنى آخر، مماثل للمبنى الأول في حالته السيئة، يشبه مكانًا مهجورًا منذ وقت بعيد، ويغمره الضوء أيضًا. كان المساء لا يزال يضيء الرصيف، وجدران المقر الثاني المغطى بالكتابات

والشباب ذوي البشرة السمراء الذين يتكئون على درابزين متزلج لسلم يؤدي إلى باب آخر من الحديد مفتوح على مصراعيه أيضًا؛ وكان المساء يحدد ظلالًا طويلة إلى جوارنا. أظن أن ليزاڤيتا لم تفهم جيدًا ما يجب أن نفعله، لكني لا أريد أن أشرح لها أي شيء؛ ومن ناحية أخرى، هي لم تسأل أيضًا. في المبنى الثاني، كانت قاعة الاستقبال مزدحمة بأشخاص ينتظرون، تحديدًا، وللوهلة الأولى، أفارقة وآسيويين. لم يكن هناك وقت للانتظار، إن أغلقت المكاتب في السادسة والنصف؛ فأفسحت لي الطريق تجاه باب على اليمين وقرعت باندفاع.

"سيصيحون"، قالت لي فتاة هندية بجانبي، تقف هناك لم أنتبه إليها، وهي تشير بعدم الموافقة. "سيخرجون ويصيحون إذا ما حاولنا القرع على الباب. أنا هنا منذ ساعات. استدعونا أنا وأمي"، (هناك بالفعل إلى جانبها سيدة كبيرة السن سمراء ترتدي ساريًا، وتنظر إلي في يأس)، "لكن لا يستقبلوننا"، استأنفت؛ كان وجهها ذكيًا ناضجًا رغم حداثة عمرها. لقد تم استدعاؤهما للحصول على الجنسية الإيطالية التي تنتظرانها منذ اثني عشر عامًا؛ أما الموجودون هناك، ينتظرون تجميع البصمات، فهم يقيمون في إيطاليا منذ وقت قريب، وليس مثلها. كان الانتظار طويلًا مثيرًا للأعصاب في هذا المكان المنتن الخانق. توقفت للحديث مع الفتاة الهندية، وانجذبت بشكل عفوي لوجهها الصغير المفعم بالحيوية؛ لقد جاءت إلى إيطاليا عندما كانت في المدرسة الابتدائية وتنوي البقاء إلى الأبد... وأنا أرغب في الشيء نفسه، فأنا أجنبية أيضًا، قلت لها وفي الوقت نفسه أظن أنني ربما سأضطر إلى الخضوع لهذه الإجراءات البيروقراطية ولن يكون سهلًا علي أن أصبر. لكن استجوبتنا بجدية شديدة سيدة طلت عند الباب.

"أريد أن أتحدث مع السيدة إيلينا"، قلت لها وهي ترمقني، كانت مترددة، من الواضح أنها لاحظت زيي المهني الأسود. "أنا معلمة"، أضفت لتأكيد تخميناتها، "أنا هنا مع صديقة لي، وينبغي أن أتحدث إلى إيلينا". سمحت لي بالدخول. وظلت ليزاڤيتا في الخارج؛ أتخيل الخوف من أنهم سيطلبون منها بعض الوثائق، وسيكتشفون أمرها، على الرغم من أن هذا هو بالضبط ما نحاول إثباته، أنها موجودة هنا منذ فترة طويلة. كانت البيئة في الواقع بعيدة كل البعد عن الضيافة. أجلسوني في مكتب مهمل يمكن من خلاله، خلف زجاج نافذة غير شفاف، رؤية فناء خلفي، تضيئه أيضًا أشعة الشمس وقت الغروب؛ وبقيت وحدي؛ أرحت

جبيني على يدٍ فوق مكتب رثّ. إن الاهتمام بهذه القصة يثقل كاهلي مثل الحجر، إلى جانب سوء الفهم الذي تسببه لي؛ فليس عندي مساحة لمصائب الآخرين؛ إلا إذا منحني هذا الاهتمام الحق في التفكير في مشاكلي فقط، التي تكفي بالفعل وتتطور. كانت الطاولة المصنوعة من الفورميكا الرمادية مليئة بالأوراق وملطخة؛ وهناك زجاجة ماء وأكواب بلاستيكية شرب منها أحدهم من قبل، وعليها أثر أحمر شفاه وبقايا من المشروبات. أود أن أكون في المكتب الآخر، الأنيق، المرتب، الذي لم أمكث به سوى بضع دقائق هذا الصباح، أود أن أريح عقلي لكي أستطيع تصفح الكتب في الضوء الخافت؛ لن أقوى بعد الآن على الخوض في مهمة مماثلة، ولن تتاح لي إمكانية أخرى لأطأ بقدمي من جديد في ذلك المكان الذي يمنح لقليلين، في دائرة أناس عقلانيين تحميهم القوانين والامتيازات. لكن إيلينا لم تتأخر في الوصول؛ شقراء، ممتلئة، جميلة جدًا، وجهها لطيف مجهد، وخاصة لأن عينيها، بلونهما الزاهي، حمراوان تدمعان، وهي ليست شابة؛ جلست وسكبت الماء في إحدى الكؤوس المتسخة، وددت لو أوقفتها، لا بد أن الحالة المتردية للمكان صدمتها. على أي حال سأشرح لها، وسأسأل؛ فالإجراءات ستكون صارمة، أبلغتني، ودون وثائق مؤكدة من الأفضل عدم القيام بمحاولة، ستكون تكاليف بلا فائدة. المطلوب هو شهادات أصلية ومؤرخة. وإيصال المركز الصحي يمكن أن يفيد، ولكن يلزم أشياء أخرى؛ إن شهادة مؤسسة كاريتاس ستكون فاصلة؛ ولكن لا بد أن تبحث ليزاقيتا بين أوراقها عن شهادة طبية، أو عقد لهاتف... لكن بالتأكيد لا تملك ليزاقيتا شيئًا من هذا كله، وعليها التظاهر بعدم وجودها لأكثر من عام، وإلا اعتبروها خارجة عن القانون، وأعادوها إلى وطنها... لكن يبدو أن هذا أمر ليس له قيمة، ولا يهم أحدًا. أومأت السيدة برأسها، فهمت، ونظرتها التي يغمرها الدمع ودودة جدًا، وكان بودها أن تساعدنا، لو استطاعت، لكن لم يكن بوسعها. شكرتها وخرجت. أخذ المغتربون ينصرفون ببطء؛ وتم إغلاق الصناديق، وحيتني الفتاة الهندية بيدها.

"سنعود غدًا"، قالت لي من بعيد، وهي تهزُّ كتفيها؛ وأمها تتبعها مثل جروٍ في الساري. ليزاقيتا لم تكن هناك. ظهرت خارج المبنى لا أدري من أين. وقفنا وسط الفناء، بين حشد المغتربين وهم ينصرفون (سيعودون غدًا هم أيضًا، من يدري كم من المرات) ونظرنا إلى بعضنا؛ كانت تحاول أن تفهم كيف سارت الأمور؛ فأخذتها

جانبًا، وجلسنا على إحدى درجات السلم وشرحت لها كل شيء، القدر القليل الذي يمكن شرحه. كانت تنصت إلي بثنية مُخبطة على فمها وحزن عميق عابس في نظرتها المُطولة. لا تملك شيئًا، فتاة مسكينة، ليس لديها أي شهادة، لا شيء على الإطلاق. نهضنا. أمسكت بذراعها. سرنا في اتجاه باب الخروج في حالة إعياء، ومعدتنا فارغة، في تلك اللحظة فقط أدركت أننا لم نأكل شيئًا طوال اليوم. في الخارج، في ساحة الانتظار الكبيرة، لم تعد هناك سيارات ولا أثر للحافلة التي تتجه نحو المدينة؛ أخذ الكثيرون يسيرون على أقدامهم بطول الطريق المتعرج، بين أشجار البلوط، في اتجاه المدينة. ومن حولنا، في الضوء الذي بدأ يختفي وقتذاك، الساحة الفسيحة من الأرض التي يطؤها الكثيرون خالية. تركت ذراعها. كنا نمشي ببطء على الطريق الصاعد، تركنا وراءنا المبنى الضخم المهمل. لم يكن لدينا الكثير لنقوله بعضنا لبعض، سرنا في صمت، هي خلفي على بعد بضع خطوات، أما أنا فكنت أتأمل، رغمًا عن أنفي، المنظر الطبيعي الجبلي المهيب أثناء لعب الظلال الواضح الذي ينفتح على يميننا، خلف أشجار البلوط. في كل الأحوال، كانت الجلسة الأولى في المؤتمر على وشك الانتهاء في تلك الساعة، وأنا مستسلمة وبشكل عام قد هدأت إلى حدٍّ كبير؛ وكان يبدو لي أن مشكلة ليزاڤيتا، هي أيضًا، ليس لها حل؛ فوثيقة واحدة لا تكفي للمخاطرة في التقدم في الإجراءات ولم أرَ أنه كان من الممكن فعل شيء آخر؛ وعودتها إلى ابنتها، إلى الأبد، كانت أفضل لها. كان المغتربون يتقدمون أمامنا فرادى، أو في ثنائيات، ومجموعات صغيرة، على مهلٍ في الطريق الصاعد المتعرج؛ كان أكثرهم من الشباب ذوي البشرة الداكنة يرتدون الچينز، ولكن هناك أيضًا نساء وبعض الأطفال؛ ولمحت، بين أشجار البلوط وفتحات انحناءات الطريق، نساءً يرتدين الساري ورجالًا يرتدون القفاطين الملونة، وبعض الفتيات اللواتي يرتدين على النمط الغربي، مفعمات بالحيوية، وشقراوات... تلك العينين الدامعتين لإيلينا... كان الأمر يتطلب صدمة. التفت في انتظار ليزاڤيتا، التي كانت تصعد في عناء بسبب الكيلوات التي زادتها. وحاولت أن أسير بجانبها.

"هل تحتاجين حقًا للعمل في إيطاليا؟"، سألتها، لكن ليزاڤيتا كمشت أنفها ولم تجب. ثم قلت في ضيق: "هل تريدين أن تقولي لي شيئًا؟". "ألا تريدين أن تفسري لي سبب وجودنا هنا؟ أرى أنه يحق لي أن أعرف. أنا أضيع الفرص من أجلك".

"لدى أبي وأمي ديون"، أجابت، "ونعيش معهما أنا وابنتي، وسينتهي الأمر بابنتي

في دار للأيتام إن لم أساعدهما". نظرت إليها. كانت توجد أيضًا إحدى تلك البنايات في منطقتي: كانت عبارة عن مبنى شعبي ضخم رمادي منخفض، به صف من النوافذ ذات القضبان الحديدية وحوله فناء به عدد قليل من الأشجار الذابلة؛ وفي ركن من العشب الجاف يوجد مزلقة وأراجيح قديمة حيث كان يلعب الأطفال في الأيام الدافئة؛ في الواقع، الويل إذا انتهى بك الأمر لأن تضع طفلًا هناك. كنت قتلت نفسي إذا ما أرسلت كاتيا إلى هناك. لكني لا أفهم لمَ تتحفظ ليزاڤيتا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن أسرتها؟

أعلى قمة الطريق ينفرج منخفض جديد، مستوٍ وفسيح، بأشجار زيتون كبيرة موزعة بطريقة عشوائية، وأشجار معمرة مائلة في خضرة المساء، وعلى قمة التل الآخر، تطلُّ المدينة بأبراجها، من وراء الجبال التي ما زالت مغطاة بالثلوج، وتتلاشى؛ ولا بد أن يكون المبنى الذي يضم قسم اللغات من بين أعلاها، ليس بعيدًا عن برج الساعة "تورِى ديللورولوچو"، ولكن يصعب عليّ تحديد موقعه؛ هيئ لي أني عرفته، لكني لست متأكدة. تذكرني الصورة المجمعة الأرستقراطية للبلدة القديمة بإمكاناتي في تلك الأمسية؛ فلا بد أن المشاركين في المؤتمر تجمعوا لتناول العشاء؛ من ذلك المكان كانت تبدو المسافة البعيدة عن الناس هائلة وحتى رفاقنا في الرحلة كانوا يختفون؛ يحيط بنا هدوء كبير، في الوقت التي كانت تزداد فيه الظلال... في أجواء المساء، كانت تفوح رائحة النعناع والأعشاب البرية في الهواء، بطول جانب الطريق الرطب، بالقرب من مجرى مائي... إنها بداية مرحلة جديدة من الحياة هناك، والتوهم بأنه ما زالت هناك إمكانية، وعند مشارف الخمسين من العمر، للعيش بحماس، وإثراء بعض التوقعات الراسخة، واغتنام بعض الفرص الباقية من الحياة القاسية والعمل على إنمائها، وقطع العلاقات مع الماضي، أي العمل على أن تحترم الحياة العهد مع أحلام طفلة الماضي. في الحقيقة أنا لا أعرف كيف؛ وإن كان من الممكن أن يحدث شيء في ذلك اليوم بهذا المعنى، فالفرصة قد ضاعت في ذلك الحين؛ وفي اليوم التالي لن يكون هناك وقت إلا ليحيي بعضنا بعضًا. كان الطريق لا ينتهي أبدًا. فالمنازل قليلة وبعيدة وحتى آخر صف من المغتربين يتقدم أمامنا بفارق كبير. كنا سنمتطي آخر جزء في الطريق قبل الوصول إلى المدينة، في الظلام، وبمفردنا؛ لم يكن مريحًا. وطلبت من ليزاڤيتا أن تسرع خطوتها.

وصلنا لأول منازل في المدينة عندما أرخى الليل سدوله؛ وقد فات أيضًا وقت العشاء. دخلنا إلى ضاحية الوحدات السكنية الشعبية، وكان من بينها الأكواخ القديمة التي تشهد على أنها كانت منطقة ريفية، وتم بناؤها منذ بضعة عقود؛ على أي حال، إنه جزء من المدينة يختلف تمامًا عن وسطها وعن الحي القديم الذي تقطن به ماريانچيلا، وهو مكان أعرفه لتطابقه مع دوائر قدري. كانت بضعة مصابيح تضيء الشارع المتواضع، وكانت هناك ورشة مفتوحة حتى تلك اللحظة. ورن الهاتف مرة أخرى. في تلك المرة كنت أعرف جيدًا من هو وأجبت وأنا أرتجف.

"سيدتي"، تحدث دي فيليتشي بالنبرة القاسية القاطعة لأحلك لحظاته، "لديك التزامات تجاه هذا المؤتمر؛ لقد دفعوا لكِ السفر والإقامة. إذا كنت قد قمت باستغلال ذلك لأغراض أخرى، لا نعرفها، فأجدر بكِ على الأقل الحضور في الساعة التاسعة غدًا. ورقتك البحثية هي التي ستستهلي بها أولى جلسات اليوم".

"سأحضر بالتأكيد يا بروفيسور"، أجبته في حزن. وبعدها لحظة سكون؛ لم أعرف ماذا أضيف، فالاستمرار في قول الأكاذيب لم يعد هو الحل، ولا حتى البدء في الشرح.

"نينا، ماذا هنالك؟ ماذا يحدث؟"، ثم سألني دي فيليتشي بنبرة متغيرة، وفي قلق.

"لا شيء، بروفيسور، لا شيء خطير"، أجبته، "غدًا سأحضر بالتأكيد".

"نينا، ما زلنا نتناول العشاء لمدة ساعة أخرى، لو تستطيعين... يمكنني أن أنتظرك في كل الأحوال...".

"لا أظن أني سأقدر، لا أعتقد"، قلت له وأنا آسفة. وأنهى هو المكالمة. جلست على جدار منخفض، على جانب الطريق، وجلست ليزاقيتا إلى جواري، ويداها البدينتان تقبضان كالعادة على الحقيبة التي تضعها على ساقيها؛ بين تلك الوحدات السكنية القديمة، والنوافذ المضاءة في الغرف حيث تناولت الأسر العَشاء منذ وقت وجيز، في تلك الوَخذة الليلية على مشارف المدينة، سيطر إحساس دفين باستحالة الوصول إلى تحرري، على الآمال التي بنيتها من قبل. أسندت يدي على يد رفيقتي. إنها شابة، وما زال هناك ما يمكن فعله من أجلها، قلت لنفسي. "غدًا

سنجد حلًا"، أكدت لها، "سأطلب من صديقتي أمينة المكتبة عمل شهادة مزورة، وعليها تاريخ قديم، تفيد بأنكِ أخذت رواية لتقرئيها في المكتبة. نعم، سنفعل... رواية *"تخفيف القدر"* لنينا بربروفا، هل سمعتِ عنها؟ هل تعرفين هذه الكاتبة؟».

«أقرأ بعض الكتب على هاتفي المحمول»، أجابتني، وقد وثقت بي بعض الشيء، «أحمّلها من مكتبة أونلاين، لكن لا أعرف هذه الكاتبة. كلا، *"تخفيف القدر"* لم أقرأها من قبل»، وعندئذ شدت يدها وثبتتها على حقيبتها (إنها ليست أكثر من مساعدة لها، إحدى الوسائل؛ فأنا لدي ابنة بعيدة، وهي أم وابنتها بعيدة عنها، وتريد الوصول إليها وحمايتها بأي ثمن، من الواضح أن علاقتنا ينبغي ألا تصل لأبعد من ذلك). قالت: "لكن شهادة المؤسسة الخيرية كانت ستكون أكثر أمانًا". حل الليل وأصبحت السماء معتمة فوق الوحدات السكنية، ونحن نجلس على الجدار المنخفض الخشن، وحيدتين في الشارع بالحي الخالي من المارة استأنفنا السير. في الحقيقة، كان ما زال بوسعي أن ألحق بدي فيليتشي، إن أردت، وأعبر ليلًا المسافة السحيقة بين تلك الضاحية والأمسية الاجتماعية التي كنت أتوقعها وأحاول الترفيه عن نفسي قليلًا. لكننا واصلنا السير على مهلٍ، جنبًا إلى جنب في صمت، وكنت حقًّا متعبة جدًا؛ وصلنا إلى الطريق الذي يحاذي أسوار المدينة، ثم المنحدر الوعر، وأخيرًا الشارع الذي يتوغل على شكل قمع بين البيوت الفقيرة بالحي الذي تقطن به ماريانچيلا، دون أن نقابل أحدًا تقريبًا؛ ووصلنا إلى الميدان الصغير. هناك، وأخيرًا، دليل على الحياة: كانت كنيسة السيد المسيح ما زالت مفتوحة والأنوار مضاءة؛ عندئذ، ودون تفكير، قررت أن أتوجه إلى الراعي الذي كان يرى ليزاڤيتا كل يوم؛ لأن منزل السيدة العجوز يطلُّ هناك، ومن ثم، ودون الاضطرار إلى الكذب كثيرًا، بوسعه أن يقول إنه قد قدم طردًا خيريًا إلى فتاة في محنة. في الميدان الصامت وفي باحة الكنيسة الدائرية القديمة لدرج غير منتظم وغير مترابط، كانت تبدو قدسية المكان الهادئة التي كانت تجذبني دائمًا، أثناء الليل، باعثة للتأمل وأكثر تعبيرًا؛ ولكن ليزاڤيتا كانت مرهقة إلى حد الإعياء، كان عليَ أن أشتري لها على الأقل شيئًا لتأكله، فهي لا تزال فتاة صغيرة. كانت الكنيسة خالية لكن الممرات بإضاءتها الخافتة كانت تفوح منها رائحة البخور والشمع وكأنما قد أقيمت إحدى الشعائر منذ وقت وجيز. أثناء فترة خدمتي عند ماريانچيلا وبعدها أيضًا، عندما كنت أنام في غرفة المخزن، على بعد خطوات قليلة من هذا المكان، كان يروق لي دخول هذه الكنيسة، وعادة

ما كنت أجلس في الصف الأخير، في مكان منعش محمي من الهيكل الصلب، وأتأمل تتابع كل الأقواس نصف الدائرية والأعمدة الضخمة التي تقسم الممرات الثلاثة والحاجز الأيقوني الذي يعلوه الصليب المصنوع من الخشب، في السكون والضوء المعتم المنتشر الذي يأتي من خلفي، عبر النوافذ المستديرة الوردية أعلى الواجهة الأمامية. إنه مكان مثير للذكريات، ويتسم بالبساطة المهيبة؛ وقد أعادت أعمال التشييد الداخل إلى مظهره الأصلي على المحارة، وأظهر الجص المتقشر أجزاء متناثرة من النقوش بصورة سيئة، وهنا وهناك أطراف من ثياب القديسين، والخيول، وشظايا من مشاهد استشهاد أو انتصار، عالم يبزغ ويتدفق في قطعه المتناثرة؛ وبالتحديد، لفت انتباهي بقايا لوحة منقوشة، على أحد الأعمدة، الجزء العلوي من وجه نظرته حية، وسرعان ما دققت عيني فيها؛ فدنوت، إنها نظرة جميلة عابرة، ربما لأحد أتباع السيد المسيح، تم التقاطها أثناء تحرك الحشد. عبرنا الممر الجانبي، ووصلنا إلى خزانة الكنيسة، ولكن هناك أيضًا لا يوجد أحد؛ فدفعنا بابًا قديمًا وصعدنا بعض الدرجات حتى وصلنا إلى حجرة استقبال معتمة يُرى من خلفها واجهة زجاجية مضاءة. كانت تنبعث بشدة من حجرة الاستقبال حيث تتناثر الطاولات والمقاعد بطريقة فوضوية، رائحة الهواء المغلق المكتوم، والتراب، وأحذية تنس متعرقة؛ تخيلت بعض الصبية وهم يصرخون، منذ فترة وجيزة، هنا بالداخل؛ مررنا بالحجرة وطرقنا الباب. دعانا الكاهن الراعي للدخول بصوت خافت متسائل. جلس خلف مكتب قديم مليء بالأوراق والسجلات في ضوء النيون البارد؛ رحب بنا بحفاوة، لكنه كان مضطربًا بعض الشيء، وبينما كان يجلسنا، كان يفرك عينيه نصف المفتوحتين، لم أدرِ ما إذا كان يغلبه النعاس أم الإرهاق؛ فالأرجح أنه كان يغفو فوق أوراقه. ومع ذلك، أخذ يتمالك شيئًا فشيئًا، واستقبلنا باهتمام، وأظهر ودّه؛ فلقد تذكرني جيدًا وتذكر رحلتي من منزل ماريانچيلا إلى السوبر ماركت: «مر ثلاث أم أربع سنوات؟».

«ثمانٍ، منذ ثماني سنوات». «تعلم أن ليزاڤيتا لديها ابنة صغيرة. وتحديدًا من أجل تلك الطفلة"، أخذت أشرح له، "من المهم أن تحصل على تصريح إقامتها ولهذا فهي بحاجة إلى الوثيقة وسأوضح لسيادتكم المسألة كلها، وأنا أشعر بالحرج بعض الشيء لما أطلبه". لكنه لم يدعني أكرر ما أقوله مرتين، نهض، أجلسني مكانه، قرب إلي آلة كاتبة قديمة وسمح لي أن أصوغ التصريحات بما أراه مناسبًا. لم أستخدم

آلة من هذا النوع أو رأيت مثلها منذ عقود، وراق لي أن أدخل الورقة، كانت مثنية لكنها بيضاء، التقطها الراعي من بين أوراق أخرى مثلها مكتوب عليها بشكل أو بآخر مبعثرة على مكتبه الفوضوي للغاية؛ وأن أضغط على تلك المفاتيح المتربة المزيتة قليلًا. «تحرير إفادة بأن السيدة ليزاڤيتا مايشجلوڤا تلقت من الكنيسة طردًا لثياب نسائية بحالة جيدة، التاريخ (تاريخ قديم)... والتوقيع...». في تلك الأثناء عثر الراعي بعناء على ختم في أحد أدراج مكتبه؛ وبالصعوبة نفسها، على إسفنجة الحبر؛ ختم الشهادة ووقعها، حتى دون أن يقرأها؛ وباقترابه على هذا النحو، كانت تفوح من تونيَّته رائحة تشبه رائحة كنيسته، لكن نفاذة بشكل كبير. نهضت، تركت مكانه والورقة في يدي تأهبت لتقديم الشكر له وللانصراف، لكن كان من الواضح أنه يحب التحدث؛ فأوقفنا، ودعاني لأجلس مرة أخرى، وجلس هو بدوره، وسأل ليزاڤيتا عن شقيق ماريانچيلا، وحكى لنا بعض نوادر عائلتهما، وعن الحفيدة الغريبة التي أعرفها أنا أيضًا ويعتبرها هو «مجنونة». كان يتحدث دون أي تحفظ، وفتحة عينيه اللتين ما زالتا تنكمشان من تمتعه بالحديث، ولأن ليزاڤيتا أيضًا، حتى بلغتها المكسورة ورغم فهمها، كما تخيلت، لنصف ما كانت تسمعه، كانت تتدخل وتشير إلى تفاصيل مسلية عن ابنة أخت ماريانچيلا غريبة الأطوار. كان يبدو عليها الارتياح والطمأنينة ولم يعد يظهر على وجهها أي أثر من معاناة اليوم. جلست وهي تميل إلى الأمام قليلًا وأخيرًا علقت حقيبتها على ظهر المقعد؛ كانت تتهدل خصلات غير مهندمة من شعرها المفكك المربوط أعلى الرأس، وعيناها تنبض بالحياة، وتقلد السيدات بمساعدة الإيماءات حيث لا تملك الكلمات وصوتها حاد صارخ وحركاتها طفولية؛ وإذا ما نظر أحد من الخارج، لرأى ضوءًا ينير الزجاج البلوري للواجهة ذات الطراز القوطي، المقسمة إلى نصفين من حائط يحدد زاوية ذلك المكتب. كنت أحدق في الخطوط المحفورة في الزجاج خلف وجه ليزاڤيتا وإطار الحديد المشغول المغطى بالتراب؛ فلم يكن هناك ركن نظيف أو مُرَتب حولنا؛ أرشيف لسجلات وإصدارات مغطاة بالتراب، المتوارثة من راعٍ إلى آخر؛ إنه مكان لحفظ المؤلفات وتخليدها ولن تشهد أي إعادة صياغة مهمة، إنها دورة الحياة بين المواليد والزواج والوفيات. ولكن ذلك القس هو الأكثر تفردًا بين الآخرين، فالفوضى في هذا المكتب تدل على عدم الاكتراث بأي قاعدة، ونزعة طبيعية لجوهر الأشياء، التي أتخيل أنها مبدأ إيمانه؛ روح مُحسِنَة نبيلة عفوية، كما يتضح

من إحساس ليزاقيتا بالطمأنينة. في الواقع، استمر التفاهم والبهجة بين الاثنين، ويمكن القول بأن الفتاة قد تغلبت على حاجز لغتها الضعيفة، ولم أرها من قبل تتحدث كثيرًا إلى هذا الحد. في لحظة انصرافنا، كانت الشهادة قد انتقلت تقريبًا إلى الطابق الثاني، لكني صافحت القس وأنا ممتنة. رافقنا إلى باب مكتبه وبطول حجرة الاستقبال المعتمة حتى الخزانة، ثم إلى الكنيسة.

"هل تريان هنا؟" سألنا مشيرًا إلى أحد جوانب المذبح لطابق ينخفض عن الأرضية، بمساحة بضعة أمتار مربعة، تمتد تحت قبة، أشبه بسرداب، تحيطه سلسلة من الحديد. "عندما عثرنا عليه، أثناء أعمال التشييد، كان مملوءًا بالعظام، آلاف العظام. هنا أسفل، يرقد مئات الموتى. نحن هنا نعيش مع الأموات. هذا من الأفضل. ولا نخاطر بأن ننسى". "كنت كما أنت عليه الآن، وستصير إلى ما صرت عليه"، قالها باللاتينية وهو مبتهج. نظرت إليه بنصف ابتسامة وظللت أبتسم له وأنا أتابع السير مع ليزاقيتا على طول الممر الجانبي، إلى أن عاد إلى الخزانة، بهيئته المميزة النحيلة في تونيته الطويلة السوداء. ولكن في آخر الكنيسة، أرادت ليزاقيتا أن تتوقف، ركعت في عناء في الصف الأخير ووضعت وجهها على يديها المضمومتين. وعندئذ ركعتُ أنا أيضًا، نظرت إلى المذبح والصليب على الحاجز الأيقوني، يضيئه من الأسفل كشاف صغير يبرز شحوب الجذع العاري والتواءه؛ وذكرني السرداب، الذي لمحت منه السلسلة المطوقة له بجوار المذبح، بالعديد من الموتى الذين يرقدون تحت أقدامنا، ويتذكرهم القس في بهجة. وفي العتمة التي تفوح منها الروائح وفي تأمل السكون، أخذت أفكر في أحبائي، وفي زوجي؛ ولو كنت في كنائسنا وقتذاك، لكتبت لهم دعاءً، حتى يريحهم الرب *في مكان مشرق اخضر هادئ يفرُّ منه الألم والحزن والأسى*... ولطويت الورقة ولأوكلتها إلى صلوات الكاهن. كنت أكرر ذلك الدعاء بطريقة آلية؛ في الحقيقة، كان الإحساس بفقد زوجي ينتابني في كل لحظة، لكن كان لا يشغل تفكيري زُفاته عندما أفكر فيه، ولا في حياة آخرة في الجنة، بل كنت أفكر فيه تحديدًا كما كان، كأنما شخصيته، وخياراته، وعلاقته معي، وبعض الكلمات التي تبادلناها معًا، والأحاديث التي بدأناها، تمتد في صورة غير مرئية، لكنها حية ولا يمكن الوصول إليها، ولذلك لا يمكن أن تكون لها نهاية في الإحساس بالألم، في الندم، وأحيانًا في الفرح، حتى إذا ما انفصلت عن الزمن والأشياء كما هي عليه الآن. في الواقع، إن زوجي لا يزال

هنا بكامل هيئته، وأنا أمسك به في أماكن الألم على الأرض، كما كانوا يعتقدون، في العصور القديمة، أن الأرواح التي لم يتم دفنها تُبعث من جديد. وهذا ما يجب أن تعلمه كاتيا، أن حياتنا مستمرة؛ فربما أصبحت أكثر تسامحًا لو تخيلت كم التناغم العميق الذي لا يزال موجودًا ويربطني بزوجي للأبد. في الحقيقة، إن هذه العظام ورماد اللحم العالق بها في صور لانهائية من أجساد معذبة غريبة عني؛ فأنا أشعر بإحساس حي ببشرة زوجي الرطبة الناعمة على عظم فكيه، في الجزء الذي لا تصل إليه اللحية، وكنت أمرر إصبعي عليه في بعض الأحيان؛ وعندما كنت أحلق لحيته، كنت أستمتع بإحساس ذلك الجزء الحيوي الطفولي وهو ينظر أمامه مباشرة، وبجدية شديدة؛ فقد كانت تلك الوسائل القليلة ما تبقى لنا من التلامس، ولا بد أن تكون ذكرى شبابنا مفجعة بالنسبة له، وأحيانًا ما كنت أجمع دموعه بتحريك إصبعي نحو تجويف عينيه العميق... كفى، غيرت الحياة مسارها الآن وهو سوف أحمله معي نحو أمور جديدة. كاتيا، لا أدري كيف أخبرك بذلك، فنحن لم نخلق لكي نتعذب إلى الأبد، مهما كانت تمليه عليك طبيعتك الحادة. نهضت ليزاڤيتا.

"ماذا كانت تعني كلمات الراعي؟"، سألتني.

"أننا سنموت جميعًا"، أجبتها وأنا أنهض أيضًا وارتسم على وجهها تعبير راض ساخر. ثم طوت الورقة التي كانت لا تزال تمسكها بيدها ووضعتها في الحقيبة، وسألتني: "من المفترض أنني تحصلت عليها الآن؟".

"بالتأكيد نعم"، أجبتها. وعندئذ ابتسمت وعانقتني، وفي عناقها لا يوجد شيء من التواضع أو الخضوع. خرجنا والليل حالك؛ ومن وراء الجدار المتقشر وسقف المنزل المقابل، ارتفع القمر يكاد يكون بدرًا، وأضاء بنوره تلك الزاوية المتواضعة خارج الزمن، فناء الكنيسة، الساحة الصغيرة، المنازل الأخرى، شجرة التنوب التي تلامس فروعها جدار منزل ماريانچيلا ونوافذ الطابق الثاني، حيث لا تزال مصاريع نافذة حجرتنا مواربة. كان شقيق السيدة العجوز ينتظرنا بفارغ الصبر. في نسيم الليل، أمسكت بذراع ليزاڤيتا وأنا أبتسم وأسرعنا.

(2)- **سربروس**: في الأساطير اليونانية والرومانية، هو كلب حراسة مُتوحش ذو ثلاثة رؤوس يحرس باب العالم السفلي، أو مثوى الأموات، ويتألف شعر عنقه أو ذنبه من الأفاعي.

٧.

قضيت الليل مستيقظة. وعلى الرغم من أني كنت متعبة جدًا، وبينما كانت ليزاڤيتا بوجهها الطفولي، في نوم عميق وأزيز ماريانچيلا يخرج بشكل منتظم في نومها، ذهبتُ إلى المطبخ لقراءة ورقتي البحثية. أعدت قراءتها عدة مرات، وأخذت أصحح بعض الأشياء؛ وأحيانًا كنت أغفو على الأوراق، ثم أعاود القراءة والتصحيح، لكن قلقًا مريرًا كان ينتاب معدتي بشكل متزايد ولحظات الغفوة بين النوم واليقظة تقطعها نوبات من التوتر؛ وشيئًا فشيئًا أخذ الليل يتقدم، وكنت أقرأ ولا أفهم ما أقرؤه، سلسلة من الجمل المبنية بعناية شديدة في حديث رأيته بلا تناسق منطقي، بينما بدأت أتفهم، وبصورة أكثر وضوحًا، أن قلقي مرتبط بـالنية التي كنت عزمت عليها في عدم حضوري إلى المؤتمر والعواقب الوخيمة لهذا الاختيار: أن أواجه البروفيسور وأتحمل نفقات السفر التي كنت سأدفعها بالتأكيد من جيبي الخاص. إن راتبي يكاد يكفي الإيجار والطعام؛ فعندما أنجح في ادخار شيء، فإن هذا المبلغ الزهيد الذي يزيد ببطء شديد أغلى عندي من عيني؛ لأنه ما أستطيع أن أعطيه لكاتيا إذا ما احتاجت إليها. ومع ذلك، لم يتم الحديث عن عدم تعويض الجامعة عن هذه الرحلة التي باءت بالفشل. كنت أتألم من الأسباب التي جعلتني لا أنوي الذهاب، وإحساسي بالتقصير والانطباع الساخر، كلما فكرت بهما، الذي كان هذا المؤتمر يثيرهما بداخلي، وأيضًا بسبب حضوري الاستثنائي. كنت أحدث نفسي بأن كاتيا، بتفكيرها البراجماتي، كانت بالتأكيد ستقترح عليَ أن أذهب وستحاول إقناعي بأن دراستي لن تكون أفضل من الأبحاث الأخرى أو أسوأ منها، وفوق ذلك لن يهتم بها أحد ومن ثم كنت سأتجنب عواقب تنازلي المؤسف حقًا. ولهذا عكفت على أوراقي ثانية، وأخذت أعيد تقييم دراستي، ولفترة وجيزة بدا كل شيء له تسلسله المنطقي واتساقه؛ ليس النص وحسب، بل حياتي نفسها، شغفي بالأدب، دراستي، محاضرة اليوم السابق، طبيعتي الجادة في التزامي، التي أبعدتني عنها أحداث حزينة؛ لكن بعد ذلك عدت للتفكير في طاولة المشاركين، في المرأة البسيطة البعيدة كل البعد عن تلك الأجواء والدوائر، وعن هذا الشعور بالانتماء الذي جعل الأستاذ المصاب بالربو بالأمس غليظًا منفرًا إلى حدٍ كبير. وكان ينعم بتلك الأجواء دي فيليتشي. ثم قررت أن أرفض وبدأ ثقل النعاس يحسّن من حالة حواسي، ولكن، بينما كان رأسي يتساقط وبدأت أشعر بأنني خفيفة،

وللحظات بدأت فيها معدتي ترتاح لتدفق إحساسي بالنوم، انتفضت وأخذ يسيطر علي مرة أخرى قلق هذا الاختيار. استيقظت وتجولت في أرجاء الغرفة؛ كان ضوء القمر يتوغل من خلال المصاريع نصف المغلقة ويضيء أثاث المطبخ؛ وفي الخارج ساد سكون كبير. كانت ليلة هادئة جدًا، ليلة من قصص الحوريات. لكنني لم أستطع أن أهدأ؛ لأن شيئًا ما كان يتجاوز تلك الحالة الطارئة، كان واضحًا؛ ويشير إلى خيارات أخرى أكثر حسمًا.

واستعدت بذاكرتي آخر أيامي في كييف، قبل رحيلي للعمل جليسة للمسنين؛ كان ما بعد ظهيرة السبت عندما ذهبت مع كاتيا إلى المركز التجاري تحت الأرض بشارع خريسكيتيك لشراء ثوب لائق لأرتديه في إيطاليا؛ أنا وهي متأبطتين ذراعينا، ونشعر بالراحة لخروجنا في هواء الربيع المنعش، ثم في الحر والرائحة المعروفين للأنفاق تحت الأرض المضاءة بنور النيون. "لا بد ألا أرحل"، فكرت، بينما كنت أجرب سترة وبنطالًا من القطن المخطط أمام مرآة، وسط صناديق التعبئة بالمتجر الصغير غير المرتب المكتظ بالبضائع، وكانت ابنتي جالسة على مقعد صغير، وتنظر إلي باهتمام، وهي تومئ برأسها بنعم. قلت لها وأنا أرتدي ثيابي: "اختاري شيئًا لنفسك". أجابت: "لست بحاجة إلى أي شيء". كنا فقراء جدًا وكانت كاتيا أكثر حرصًا مني؛ لكنها في ذلك المساء اختارت دفترًا صغيرًا من الجلد المزين بالزهور من المكتبة المجاورة لمتجر الملابس، كهدية مني لها. ثم تذكرت اليوم الذي اتصلت بي وطلبت مني العودة إلى أوكرانيا. وتبعت المكالمة ليلة طويلة في سرير غرفتي بالمخزن. وعن طريق الباب الزجاجي البلوري، الذي يفصل الغرفة الصغيرة عن المحل المجاور، كان ضوء المصباح الطارد للبعوض يعكس أشعة زرقاء على الجدران المطلية بالمينا، وعلى المكانس، والدلاء، ومناشف الأطباق؛ وكان الحوض المثلث في الركن يقطر؛ فعلى الرغم من عدد المرات التي حاولنا فيها إصلاحه، لم يتوقف عن التسريب؛ وكان التقطير مثيرًا للأعصاب. كنت قد استيقظت قبل الفجر بوقت طويل، نظفت المنضدة، والأرفف، والأرضية في عجل، وبين دموعي، لأني في الصباح كنت سأتحدث مع صاحبة المنزل وأنظم رحيلي. وعلى النقيض، مع ضوء النهار عدت إلى قراري الأول، وأصررت على البقاء.

ومقارنة مع بعض القرارات التي اتخذتها في الماضي، فإن الذهاب إلى المؤتمر أو عدم الذهاب يُعَدُّ أمرًا تافهًا. ومع ذلك، فلم أجد نفسي أمام خيار منذ سنوات؛

ويداهمني الوقت إلى أن أفقد أي إمكانية للتغيير. ويجدر بي أن أعرف كيف تسير الأمور. لقد بدأت أتقدم في العمر على هذه الأرض، أي شعرت بسعادة مبهمة في كل لحظة تعرف طريقها للنهاية، وأتشبث بطاقة أخيرة فاضحة من رغبات مكبوتة منذ فترة طويلة، كلها صور من ألم مطلق بلا عودة، وحب في مرحلة الشيخوخة. وإذا كان لا بد أن أرفض كل شيء، فمن الصعب أن أقول ماذا سيتبقى لدي.

أخذ ضوء أكثر سطوعًا يتوغل داخل المطبخ شيئًا فشيئًا بينما يزداد نقيق الطيور؛ ذهبت لأفتح المصاريع، نظرت إلى السماء المتلألئة والبستان المهجور، وأشجار الأكاسيا البرية العالية، المتشابكة المنحنية، التي تعوق الرؤية فيما وراءها، أثناء الضوء الصافي وبرودة الفجر الربيعي العطر؛ لكن هذا الثقل على قلبي لا ينجلي.

ليزاڤيتا في ثوب النوم ناصع البياض، ظهرت فجأة من ورائي؛ قفلت النافذة حتى لا تشعر بالبرد.

"لمَ لم تنامي؟"، سألتني.

"كنت قلقة بسبب المؤتمر"، أجبتها.

"لمَ؟".

"لا أشعر أني مستعدة. لا أظن أنني سأذهب".

نظرت إلي. إنها جذابة جدًا، في نضارة يقظتها وشعرها الطويل الرقيق الأشقر غير المهندم على كتفيها؛ لكن بشرتها ناصعة البياض في نور الصباح هي التي شدتني تحديدًا؛ سحر الطفولة كله ممزوج بجمال مزدهر؛ في الحقيقة، ليزاڤيتا ما هي إلا زهرة.

"هل ستندمين إذا ما ذهبت؟"، سألتني.

"لا أدري"، قلت.

ابتسمت. بلا شك إنها لم تخلق دراما من ذلك. لا بد أن تعتني بصحة ماريانچيلا ثم تستعد. سيأتي شقيق السيدة العجوز مبكرًا لاصطحابها، ولتجنب طابور طويل في مركز الشرطة. لقد دقت السادسة، لكن مشكلتها مهمة إلى حدٍ كبير. تناولنا معًا

كوبًا من الحليب في المطبخ المشرق.

"جئتِ لهذا المؤتمر ولن تذهبي"، قالت لي في لحظة معينة. نظرنا إلى بعضنا وداهمنا الضحك.

أبديت استعدادي للبقاء مع ماريانچيلا -ليس ضروريًا- كان بوسعهما استدعاء الجارة، لكني أكدت لهما أنني سأبقى. ليزاڤيتا تركتني أساعدها في تنظيف السيدة العجوز (كانت تنظف برفق تقرحات الفراش على وجه الخصوص، عذاب حقيقي جعلني أرغب في أن أستدير إلى الجانب الآخر؛ عندما كان الأمر موكلًا إلي، لم يكن هذا الجسد الأبيض تقرح بعد)، ثم أخذت تستعد بعناية، وارتدت سترة حمراء؛ وبشعرها المربوط، ووجهها المُمَكيج، وجاذبيتها مثل الدمية ماتريوشكا، انصرفت مع شقيق ماريانچيلا، وقد جاء ليأخذها، كما لو كان جدها.

جلست عند مؤخرة سرير السيدة العجوز، في غرفتها المعتمة التي تفوح منها رائحة المنظف لكنها تحتفظ أيضًا بقليل من رائحة كريهة في الليل. ظللت مغمضة العينين، ويغلبني النعاس؛ يجب أن أقدم شروحًا لدي فيليتشي ولن يكون هذا سهلًا. في الواقع، أعرف أنه ربما يتفهم على الرغم من أنه مشاكس جدًا. ربما يكون شعوره الساخر أكثر حدة من شعوري وأكثر مني، وبما أنه تورط في هذا الأمر حتى أذنيه منذ وقت طويل، فإن عليه أن يعترف بأن الدراسات الأدبية غالبًا ما ترتكز على فرضيات وغير مفيدة وأن يشعر بالتعب من ذلك، فهناك ومضات من نفاد الصبر كانت تعبر نظرته أمام الطلاب الأكثر مشاركة؛ وكلما أصبح الحديث الأدبي أكثر صفاءً، كان هناك احتمال أكبر في أن تظهر عليه علامات عدم الارتياح؛ فلم يكن يريد إذكاء طلابه ببعض الأوهام، ليوحي للأولاد بأنه يقوم بالفعل بلعبة لا تستحوذ على اهتمامه. "دوستويڤسكي، أعماله موجهة لقلوب بريئة؛ لكنه كان يكتب أيضًا ليبقى... وكان من الضروري أن يستمر، ولهذا كان يسهب في سرده..."، هذا رأيه. كان يريد أبحاثًا دقيقة، لكن لا بد أن يحصل الطلاب على شهادة التخرج في الوقت المحدد؛ فكان يبذل قصارى جهده حتى يستطيعوا المشاركة في إحدى المسابقات، والحصول على وظيفة، ثم يبتعد عنهم، وكان ينصرف عنهم ببضع كلمات جافة عندما يأتون ليلقوا عليه التحية ويشكروه. إن أوراقه البحثية التي أعدت قراءتها في أشهر الانتظار والتحضير تلك، بدت لي كما لم أرَ من قبل

ذات دقة لغوية متناهية، لكنها باردة؛ لأن بصمة شخصيته المتسلطة تطابقت دون أخطاء مع النتيجة العلمية للبحث، مع دقة الملاحظات وحجة المناقشة، وخلاصة القول، بات واضحًا إلى حدٍّ كبير أن تلك الأعمال ليس لها قيمة بالنسبة له. في الواقع، إن دي فيليتشي يتشبث بأسنانه بحياته الأكاديمية، لكن بداخله يوجد شيء آخر؛ وأستطيع أن أتخيله هذا الصباح بين المتحدثين، غير مبالٍ عصبي المزاج متغطرسًا... لقد كرس لهذه الحياة روحه وجسده لأن المبارة الرابحة في حياته بدأت على لوحة الشطرنج تلك، وهي لعبة يعرف كيف يلعبها، ويعرف كيفية التوجه فيها، أما المباراة الأخرى، التي أجراها في المساحات التي لم تكن في الحسبان في الحياة الزوجية والمشاعر، كانت أكثر مشقة؛ فلم ينجح فيها، وجاءت النتيجة خاسرة، لكنها الحياة التي كانت تهمه. والأدب الذي كرس وجوده له فقد معناه عنده مثلما حدث معي، وما استطعت تخمينه بالأمس، هو أن حزنه قد ازداد عمقًا على مر السنين. حسنًا، إن دي فيليتشي على الأرجح لن يعير اهتمامًا لهذه الاعتبارات، وما لن يستطيع قبوله هو قراري العملي؛ كان إلزامًا علي المشاركة في المؤتمر ونفقاتي الآن محسوبة، وإن أردت إعادة المبلغ سيزيد من حدته بصورة أسوأ. سنرى. يغلبني النعاس ولا تظهر على وجه ماريانچيلا النحيل أي علامات لطلب المساعدة، وعيناها المفتوحتان باهتتان زائغتان؛ وذراعاها الممدودتان، ويداها المقعرتان تكاد تتحرك على الغطاء الأبيض، وكأنها تداعبه؛ وفي هذه الغرفة المشرقة التي يتخللها الضوء من بين المصاريع المغلقة، بين أثاث مصنوع من خشب الماهوجني المصقول ومرآة منضدة الزينة بأدواتها القديمة (لقد مر على هذا المنزل وقت من الرقي في ماضيه) كان الهدوء كبيرًا؛ فالمقعد المبطن ناعم ورحب، ورأسي يتدلى، كانت هدنة.

تتجول في ذهني صور مشوشة لجسد ماريانچيلا، الأبيض المتصلب الهزيل أسفل مني؛ أنا الآن من يقوم بتقليبه ومضطرة إلى تطهيره... إن هذا اللحم المتقيح يثير اشمئزازي، أخذت أفكر، فضلًا عن أنني لن أفلح في الانتهاء في الوقت المناسب... وفي الحقيقة أسمع، من مكان بالمنزل، صوتًا غير واضح للهاتف المحمول وأخذ يتضح شيئًا فشيئًا بصورة مزعجة. لا بد أني تركته على مائدة المطبخ، لكنني لم أتحرك... استمر الصوت طويلًا في الارتداد بين أسطح الشقة أثناء غشاوة الصباح، وأخذ يرن ويرن إلى أن توقف. في الغرفة الصامتة، كان النفس

الخافت لماريانچيلا التي لا تتحرك تحت الأغطية البيضاء، مصحوبًا بحركة غير محسوسة على شفتيها، مثل طقطقة قبلات صغيرة من فم منكمش؛ وفي شعاع الضوء الذي يعبر الوجه الباهت ويمتد فوق خزانة السرير، يتحرك غبار المنزل وفي هذا الضوء الضبابي حاولت أن أرى المنبه. في هذه الأثناء، عاد الهاتف المحمول ليرن من جديد. أخذ يرن طويلًا. ثم توقف. واستأنف مرة أخرى. قررت أن أنهض وأذهب في اتجاه الممر. لكن الصوت انقطع. وعاد الهدوء من جديد. في المنزل كان لا يسمع إلا صوت خطواتي. وعندما عدت لأجلس عند مؤخرة سرير السيدة العجوز، شعرت بالارتياح؛ فالمؤتمر سيبدأ من دوني؛ وسيتخلون عن المتحدث الأول: لن يكون الأمر شديد الخطورة.

VI.

استأذنت وقت ما بعد الظهيرة لأتجول في وسط المدينة التاريخي الذي أحبه، في انتظار البروفيسور أن يجد حلًا لآخر التزاماته مع الضيوف. وكنت سأذهب إليه في المساء. تلذذت باحتساء القهوة في هذا الميدان الرحب الهادئ، بعيدًا عن الشارع الأكثر شهرة. وأخيرًا وحدي. عادت ليزاڤيتا مع شقيق ماريانچيلا في حالة من الرضا. كانت ليزاڤيتا متألقة، خلعت سترتها فور دخولها المنزل، وهي تشعر بالدفء والسعادة؛ فقد أكدوا لها النتيجة الطيبة للإجراءات. وكان واضحًا أيضًا سعادة الرجل العجوز في إرضائها، على الرغم من أنه كان لا يزال منزعجًا قليلًا بسبب النفقات التي سيتعين عليه تحملها. جلسنا نحن الثلاثة حول المائدة؛ كانت الشمس قد اجتاحت الغرفة واضطررت إلى موارية المصاريع التي فتحتها عند الفجر. كان العجوز يرغب، وهو يجلس بأريحية، في أن يتحدث. حكى لي بالتفاصيل الدقيقة عن فترة الصباح في مركز الشرطة، بشيء من التفاخر بما تمكنوا من الحصول عليه ولماذا وضع أمواله فيه، وقد وجد أنها مدخرات، في النهاية، أُنفِقَتْ بشكل جيد. والآن علينا أن ننتظر شهرين قبل استدعاء ليزاڤيتا لبصمة الأصابع، وسيتعين عليهما العودة إلى المكتب الذي كنا فيه بالأمس، ثم شهرين آخرين للحصول على تصريح الإقامة الذي سيصل مباشرة إلى المنزل؛ وعندئذ، ستستطيع الفتاة العودة إلى بلدها، وسيتعلق الأمر بالترتيب مع جليسة أخرى طوال الفترة التي ستكون فيها بعيدة –وبمهارتها التي لا تقدر بثمن مثلما كنت أنا أيضًا، لن يكون من السهل استبدالها- (لم يخطر على بالنا أن نفترض أن الوقت الذي تستغرقه البيروقراطية سيكون أطول من متوسط العمر المتوقع للسيدة ذات المئة عامٍ وهذا أفضل، إنها هي التي جمعتنا كلنا حول تلك الطاولة). ولكن في لحظة معينة توقف الرجل العجوز لينظر إليَ؛ إنه رجل مهذب جدًا لدرجة أنه انشغل بي أيضًا –وكان من الواضح أني أبذل جهدًا في متابعة التفاصيل ولا أفكر في أي شيء آخر- وكنت ممتنة له. سألني بلباقة، وبشيء من التوقير، ما الذي كنت سأتحدث عنه في المؤتمر.

"كنت سأتحدث عن كاتب روسي"، قلت وأنا أرفع كتفي، وكأنني أقول "لن أتحدث عن شيء". ثم حددت كلامي: "أنطون تشيخوف"، وكان هذا الاسم لا يمثل

له شيئًا. ولكن ليزاڤيتا قرأت قصص تشيخوف منذ فترة وجيزة.

"قصص حزينة"، قال وهو يكمش أنفه، ويهزُّ رأسه. "*السيدة والجرو، الاحتفال بيوم الاسم، على العربة*... كلها حزينة". لم أكن أتوقع رأيه.

"هل قرأت "*على العربة*"؟"، سألته. "*على العربة*" تحكي قصة معلمة تركت موسكو حيث كانت تعيش مع عائلتها، وتسكن بمفردها منذ سنوات، في بلدة صغيرة غير مضيافة، وبين أناس قاسية؛ ثم بدأت رحلة سفر غير مريحة وشاقة على العربة، وبينما هي في طريقها لتحصيل معاشها بالمدينة، يُهَيأ إليها فجأة أنها ترى والدتها، المتوفاة منذ زمن طويل، وسرعان ما يتجسد الماضي أمامها ويصاحبه إحساس بآفاق مستقبلية؛ لأنه لم يكن هناك إلا رجل نبيل فقط، في تلك البلدة، بإمكانه أن يشدَ انتباهها وقد التقت به في الطريق... كانت لحظة، ثم عاد كل شيء إلى كآبة الحياة اليومية... وما من أحد يستطيع أن يستحضر مثل تشيخوف الحياة البشرية، والشعور الذي لا يقارن بالأمل في السعادة الذي يتمتع به الأطفال، وما زال من الممكن الإحساس به... عن أي شيء كنت سأتحدث في الورقة البحثية؟ لا شيء من هذا كله. لكن من الضروري أن تتفهم ليزاڤيتا، وتتعرف على نفسها في الوحدة التي عاشت فيها تلك المرأة؛ وتتابع أحداث القصة، وتُرجعها إلى الأسباب العميقة التي ربما قضت بطريقة أو بأخرى، على ذلك الشعور الدفين بالضيق الذي يصاحبها بالتأكيد كل يوم. ربما كان بإمكاني أن أقدم شيئًا في المؤتمر؛ فهناك نواة حية في الحديث حول الأدب؛ وكل شيء يدور حول عدم التوغل في مناقشات معقدة؛ واستنباط ما يمكن أن يقوله العمل الأدبي عن حياة كل واحد منا والاستفادة منه وما يمكن أن يضيفه إليها، للوصول إلى الاحتمالات في الحياة البشرية وأشكالها التي لا نهاية لها. وهذا ما كان بوسعي أن أفعله. أشعر بتقلص في معدتي عندما أفكر في الفرصة التي ضاعت مني.

"قصة حزينة، لكنها جميلة، أليس كذلك؟"، قلت لها.

تجهم وجه ليزاڤيتا مرة أخرى، ورفعت كتفيها. كان شقيق ماريانچيلا ينظر إلينا؛ ويبتسم قليلًا، فهو رجل مسن وسيم وقور جدًا.

"هل كنت ستتحدثين عن هذه القصة؟" سألني، وهو يومئ برأسه ويساعد نفسه بحركة يديه التي تؤيد ما يقول.

"لا"، أجبته، "عن شيء آخر"؛ وابتسمت له.

"وهي موضوعات تهمك، أليس كذلك؟"، سألني بالتعبير نفسه بين البشاشة والوقار.

"نعم"، أجبته. حديث مثل هذا يضعني في مأزق، على الرغم من أن الرجل العجوز لم يكن لديه أدنى نية في ذلك؛ بل على العكس تمامًا. حسنًا. ثم حيينا بعضنا بعضًا، سأعود ليلًا؛ وفي الوقت الحالي؛ فالمسألة تتعلق بأن أنتظر حتى المساء ولا مانع عندي من الاستمتاع بساعات الراحة هذه؛ فأنا واثقة إلى حدٍ كبير من أن كل شيء سيكون على ما يرام مع دي فيليتشي. وفي يوم من الأيام ستكشف لي الآلهة عن معنى رحلتي هذه.

VII.

لقد ذهب الجميع. كان القسم خاليًا. والبروفيسور، في عتمة حجرته المعتادة، كان جالسًا أمام المكتب ورحب بي في هدوء؛ وعلى الأرجح كان في انتظاري.

"فلتتفضلي"، قال. "إذًا؟ ماذا حدث لكِ؟"، وارتمى على المقعد؛ فكانت رابطة عنقه مفككة، واضطراب نهاية اليوم ينعكس على الملابس الأنيقة التي أعرفها. حكيت له بإيجاز عن مغامرة اليوم السابق وما بعدها، وفي صراحة شديدة عن الأزمة النفسية التي أصابتني ليلًا. أخبرته بأني سأقوم بسداد نفقات السفر، والوقت الذي سأستغرقه في جمع المبلغ... مرر يده في شعره، وأخفض رأسه ببطء.

"لا تثيري الشجن"، قال دون أن ينظر إليَ، لكن كان مسالمًا.

"على الأقل أعطني هذه الفرصة للتخلص من الذنب..."، أصررت.

"كفى. دعينا نغير الموضوع"، قال بشكل قاطع، "المؤتمر سار على ما يرام حتى دون ورقتك البحثية، إذا ما كنتِ تريدين أن تعرفي ذلك؛ حسنًا، فلنتوقف عن الحديث في هذا أيضًا. ولنتحدث عن شيء آخر... ". سكت وأخذ ينظر إليَ، وهذه المرة، بنصف ابتسامة، أكثر لطفًا عن كونها ساخرة.

"حسنًا، تحدث سيدي، احكِ لي..."، قلت له. "سألت نفسي عدة مرات، في هذه السنوات، عما كنت تفعله...".

"زوجتي رحلت نهائيًا"، أجابني بنبرة جافة، "تعيش مع ابني في لندن".

"هل تفتقدها؟".

"عشنا معًا لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا"، قال.

"أعرف ذلك".

"لكنها كانت تأتي، تعتني بالمنزل، وبي...اسمعي"، قال لي وهو ينهض، وبدأ يهندم ربطة عنقه، "عندما أمعن التفكير في الأمر، لا أريد التحدث عن هذا أيضًا؛ لقد تأخر الوقت، وحان وقت العشاء تقريبًا. إنكِ يا نينا، لم تصلي إلى قرار في الحضور... سأتناول العشاء بمفردي، كالمعتاد؛ هل ترغبين في صحبتي؟".

"بالتأكيد، سيدي"، أجبته. نهضت وبينما كنت أنتظر حتى يستعد، تلفتُّ حولي قليلًا، وأنا أحاول العثور على بعض الأحاسيس البعيدة التي يثيرها المساء. أخذت أقترب من النافذة، لكني رأيت، وأنا أتكئ على المجلدات في زاوية من المكتبة، صورة صغيرة مُضفرة، لنصف جذع جارَ عليه الزمن، يظهر فيها امرأة وطفل؛ فوضعتها في يدي وأمعنت النظر فيها؛ وبالقدر الذي سمح لي الضوء الخافت دنوت من الزجاج: يقف الاثنان في الخلفية المضببة؛ السيدة بشعرها الداكن، عينان صغيرتان متقاربتان، أنف رقيق جميل، فم كبير؛ وفتحة رقبة كبيرة على ثدي ممتلئ، يغطي جزءًا منه فقط رأس الطفل الجالس على ساقيها، جاد جدًا ويشبه الأم. لم يقل دي فيليتشي شيئًا وأنا لم أسأل. أعدت الصورة إلى مكانها. خرجنا؛ مررنا بالممر الخالي، هبطنا الدرج الحجري العريض، وقد أصبح مظلمًا تقريبًا، كما كان يحدث لنا مرات عديدة، منذ سنوات. في تلك الصورة تظهر مادالينا في قمة نضجها العاطفي والحسم؛ امرأة شديدة الجاذبية، تميل بشيء من عدم اللامبالاة نحو وظيفة الأم التي كانت تعتزم تجسيدها.

أصبح الشارع الرئيس للمدينة خاليًا تقريبًا في تلك الساعة المتأخرة مساءً؛ ظل كل منا صامتًا. كان يوم إجازة، وانصرف الجميع إلى منازلهم لتناول العشاء؛ فكانت لحظة من الوحدة المطلقة لمن هو في الخارج، والتي أعرفها جيدًا، وقد عشتُها الليلة الماضية أيضًا؛ ومع ذلك، لم أستطع ألا أحنَّ إلى الماضي، وأنا أتذكر جولاتي دون مسكن في الفترة التي قضيتها بإيطاليا، وتلك الاستقلالية التي كانت حينئذ جديدة بالنسبة لي ولم أفكر فيها قط، وعلى العكس الآن، يكمن فيها استبعادي الذي اعتدتُ عليه. لكن الآن، وقد صرت معه، في ألفة لم أكن أتخيلها ومنحها لي بتلقائية شديدة، وفي هذا الطريق الهادئ المألوف، وبعد ملابسات هذه الأيام الغريبة، أتوقع أن كل حدث سيكتسب مغزاه المنطقي وحياتي ستسير نحو الأفضل.

أدخلني دي فيليتشي في زقاق من المباني القديمة لم أذهب إليه من قبل، في اتجاه مبنى ريفي مميز؛ وسُلم خارجي مزهر يؤدي إلى الطابق الثاني حيث توجد لافتة لمطعم. لا بد أنه كان في وقت من الأوقات بيتًا ريفيًا، ثم دخل في إطار المدينة، عند حدود الريف؛ إنه يثير خيالنا بأن الداخل من الأزمنة البعيدة ورائحة دخان أحد المواقد. قادتنا النادلة (وهي فتاة جميلة، أنيقة حتى كان من

الصعب ألا يلتفت إليها دي فيليتشي الذي، في واقع الأمر، عاملها بلطف) إلى قاعة ريفية، إضاءتها خافتة، وبها عدد قليل من الطاولات الخالية المجهزة بشكل جيد؛ فأجلستنا في ركن وأشعلت الشمعة بأناقة في وسط المائدة؛ وفي الحقيقة كانت رائحة الطهي جذابة في القاعة. من أحد الجوانب، كانت النافذة تؤطر الريف، والتلال صارت رمادية، والسماء الصافية تُظْلِم بحلول المساء. دقق البروفيسور في قائمة الطعام، وكان هادئًا جدًا قليل الكلام، ربما لم أره كذلك من قبل؛ فتركته يختار لي أيضًا. في تلك الأثناء، ذهبت إلى الحمام. في ذلك المكان الريفي الصغير الذي تفوح منه رائحة القرفة، حاولت أمام المرآة هندمة خصلات شعري الضعيفة ومعالجة بشرتي الشاحبة جدًا؛ فعلى جبيني، عند زوايا العينين والفم، تظهر علامات السنين، لكن الزمن لم يغير بعد وجهي جذريًا الذي كان مُعبرًا في الماضي؛ وهناك شيء جديد، فالملامح تظهر محددة أكثر من ذي قبل، وخط عظام وجنتي أكثر وضوحًا، وقد زدت عليهما بضعة كيلومترات، وأُصبِغ وجهي بلمحة آسيوية، وأخيرًا أشبه أمي. عندما عدت لأجلس أمام دي فيليتشي، على وهج الشمعة، نظر بلطف إلى وجهي الباهت، وانتويت أن أُبقِي على شعلة تعبير وجهي الخافتة حية قدر المستطاع. لكنه هو أيضًا الآن، وبينما كنا ننتظر أن يحضروا لنا الأطباق التي طلبها، كان شاحبًا، وفمه ذابل مسحوب: إنه يبلغ من العمر ستة وستين عامًا، وهذا يكفي لارتخاء أعصابه قليلًا، ولإطلالة صورة شيخوخته الداهمة على وجهه وفي انحناءة كتفيه. أخذ يدق على المائدة بأصابعه. كان يبدو أنه مستغرق في تفكيره. في الواقع، هذا الاستغراق، وهذه الملامح ومزاجه جعلوا جلستنا معًا أكثر حميمية واسترخاء. الآن وقد هدأ أخيرًا الاندفاع الذي كنت أنتويه عند وصولي، أصبحت أتنفس بحرية. وبينما نحن جالسين كانت هناك مقدمات مختلفة لكي نستعيد ذلك الانسجام الذي كنا نصل إليه أحيانًا، عندما كان كلانا منتبهًا إلى انشغالاته الخاصة. لكن الموقف أصبح مختلفًا وأكثر نضجًا. الآن، في الحقيقة، هنا، ورغم سنوات عديدة من الفراق، أظن أنه بوسعي أيضًا أن أنهض، في يُسرٍ ودون تحفظ، وأذهب لأجلس إلى جواره، على المقعد المقابل للحائط، وآخذ يده وأشد عليها بحرارة، وبتفهم كامل أحاول إعادة بناء العلاقة الحميمية التي لم نصل إليها قط في حياتنا المنعزلة البعيدة اللاهثة دون توقف وراء التفكير في العواطف التي لم نتمكن من كبحها. ولكن أيضًا هكذا، كل منا أمام الآخر، الآن، وحتى دون هذه الخطوة الأخرى

نحو الألفة بيننا، والتي ستأتي لاحقًا بالتأكيد وبتلقائية، فإن هذا الشخص الذي يصمت يعرف مثلي أن لقاءنا لم يعد مصادفة جعلتنا نتقابل في مكتبة القسم، ولا هي مصادفة سلوكه المعتاد وتحفظه في تلك الأيام البعيدة؛ فكلانا يستطيع حاليًا أن يعترف وقد تعلمنا، منذ أن نزعت الحياة منا كل شيء، أننا نحب أن نكون معًا. لكن الآن دي فيليتشي أسند ظهره على الحائط، شبك ساقيه، عقد ذراعيه، استعاد حيويته وابتسم في لمحة ساخرة - لحظة من المرونة تذكرني بثرثرته مع الطالبات، في أوقات الراحة بمنتصف الربيع.

"تلك الصورة على أحد أرفف مكتبتك... كانت زوجتك امرأة جذابة جدًا"، قلت له. نظر إليَّ. وقد صدمه حديثي، لكنه في تلك اللحظة يعتزم أن يسخر مني.

"نينا، أنتِ لا تستطيعين العيش دون الانشغال بشؤون الآخرين"، قال لي، "جئتِ إلى هنا ليومين ولا بد أن تنخرطي في أقدار الجميع... يومين. وتندفعين في مركز للمغتربين، وتطرقين على جميع منازل القسيسين، ولا أدري ماذا هنالك أيضًا... لماذا لا تعيشين حياتك في سلام؟".

"اعتقدت دائمًا، ولا أدري ما السبب، أن مادالينا شقراء"، قلت له.

"وعلى العكس شعرها أسود أرجواني، وإلى الآن رغم شيب شعرها تصبغه باللون الأسود مثل القار".

"نظرتها ساحرة وجسمها جذاب". الآن أدرك أن تلك الصورة قد طُبِعَت في ذهني مثل وميض الضوء على شبكية العين؛ وأنه لا جدوى من التفكير في أن المرأة التي تم التقاط الصورة لها في لحظة مزدهرة من حياتها تبلغ الآن الستين من عمرها ومتعبة، حيث إن السنين وتمزق الروح في حطام زواج فاشل لا بد أن غيروا من جمال الماضي بشكل كبير.

"كان جسم مادالينا رائعًا، لكنه الآن، بالتأكيد، لم يعد كذلك. كانت ترتدي في شبابها ثيابًا مزهرة ضيقة، وعندما كانت تحمل ابنها على ذراعها، كانت تتعرى تمامًا ولم تكن تبالي؛ فكان الرجال في مدينتي يحدقون فيها؛ وكنت أنا من يدير أكتافهم. كانت أشبه بإحدى النجمات، قبل ثلاثين عامًا، كانت حلمًا". (هذا ما كان يشعر به دي فيليتشي، ولا أتذكره أنا: ويزيد من جِدته الماضي).

كانت النادلة تخدمنا بشيء من الخشونة، ببضع كلمات خافتة وإيماءات أنيقة وميل واضح عارم للهيمنة على زبائنها؛ ودي فيليتشي ينظر إليها من أسفل، ويستفزها؛ في هذه الأثناء كنا نأكل بشهية طبق اللحم المحمر الذي طلبه، وهو يسكب النبيذ لنفسه ولي، وشيئًا فشيئًا يستعيد طاقته ويغير سلوكه من جديد. وسرعان ما ترك جانبًا التفكير في زوجته التي كنت أود، على العكس، في الاستمرار في الحديث عنها؛ الآن هو يُركِّز تفكيره في المؤتمر، ويفتح النار كليًا على جميع المشاركين. وهذه هي أحاديثه الأكثر مللًا، لكنني أخذت أستمع إليه في تعاطف؛ وفي الوقت نفسه خشيت أن أمسيتنا، وهي تنجرف بعيدًا عما استطعت أن أصدقه وأتمناه في لحظة معينة، تنتهي في هذه السلسلة من الشكاوى. فأنا أعرفه، ويمكنه فعل ذلك، إلا إذا بعد ذلك، وربما في لحظات وجيزة من التعقل، سيحدثني عن شيء يخصني وسأحمله معي إلى وطني وسأستطيع، بمجرد أن تنغلق سماء الشمال الملبدة بالغيوم من فوقي، إعادة التفكير فيه من حين لآخر، ولسنوات. كانت هذه الأيام شاقة، وغدًا سأضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا؛ في الواقع أنا متعبة وعلى استعداد أيضًا أن أترك كل شيء ينتهي على هذا النحو: أعود إلى مدينتي، في شقتي، لأجد وحدتي والهدوء الرائع لأيام كلها متشابهة، وضوء الصباح المتردد بين البيوت، وركني في الحافلة المترنحة. قبل بضع ليالٍ، أثناء عودتي من العمل إلى المنزل ورأسي معبأ بالتفكير في السفر الوشيك، وبينما كان شارع خريسكتيك ينزلق خارج النوافذ، في تلك الساعة الأكثر ازدحامًا من أي وقت آخر -وحشود من البشر ينتظرون إشارات المرور وجموع في عجلة وفوضى تتكدس على الأرصفة الكبيرة التي تعج بها- فكرت برغبة وسعادة متزايدة في هذه المدينة الهادئة، في الشارع الصامت الذي مررت به مع دي فيليتشي قبل قليل: عالمان يبعد كل منهما عن الآخر سنتين ضوئيتين؛ هناك الفوضى، وهنا النظام، هناك الفقر، وهنا الغنى، هناك في شهر مايو، الضوء الأبيض الذي لا يغيب على الطرق وفيما وراء المباني المهيبة، وهنا الشفق المحاصر بالأسوار القديمة؛ هناك ما زالت الجسور الشامخة والنهر الكبير المفتوح المتجمد في بعض فصول السنة. الآن كييف تدعوني إليها. سأعود، سأستأنف حياتي المعتادة، وبشكل نهائي، سأزيل من على كتفي كل الآمال. لكن دي فيليتشي سكت، سكب لنفسه كأسًا أخرى وهو ينظر إلي، وسألني أخيرًا، وهو يقلب الكأس في يده، عن ابنتي؛ ومن الواضح أنه فعل ذلك على

مضض، فليس من السهل عليه إفساح المجال للحظات يستمع فيها لأحد؛ فهو مثل كل شخص عصبي المزاج، تعذبه حكايات مشاكل الآخرين. لكني حكيت له كل شيء في هدوء. إنه يتذكر معاناتي في الأيام التي أعقبت الجنازة، لكنه لم يتخيل أن القطيعة ستكون عميقة صارمة إلى هذا الحد. وحاولت أن أكون موضوعية قدر استطاعتي، عددت أخطائي مع كاتيا، ولم أسكت عن سوء فهمها وقساوتها؛ فأي مضامين أو احتمالات قمت بتحليلها بعمق لسنوات عديدة في خبايا نفسي المعذبة يمكن وصفها الآن لمحاور واعٍ قادر على إصدار حكم فيها. لكن دي فيليتشي قاطعني قائلًا: "تتعاملين مع القضية برمتها وأنتِ تقومين بدور البطولة المعتاد". نظرت إليه. ولم يفاجئني، لكني وددت أن أفهم.

"ماذا عليّ أن أفعل؟"، سألته.

"أعتقد أن ابنتك فتاة ذكية؛ ومن المفروض أن نزعم أنها تتفهم، وإن كان الأمر كذلك، عليها أن تسامح؛ وهذا يكفي. في هذه القصة لا يوجد خيانات أو هجر، ولم يُجرَح أحد بقسوة، بل حقيقة مجرد حالة سوء تفاهم ترتبط بظرف مأساوي؛ فأنتِ لم تستوعبي خطورة الموقف ولم تسافري في الوقت المناسب، وابنتك أرجعت غيابك لأسباب لا ندري ما هي، وشعرت بأنك هجرتها. لم تفهما بعضكما بعضًا، هذا كل شيء". ونظر إليّ في قلق. "هل تعرفين رقم هاتف ابنتك؟"، سألني. "فلتأتي هنا بجانبي يا نينا، ابحثي عن الرقم ودعيني أتحدث مع كاتيا". فعلت ما طلبه مني، جلست إلى جواره على المقعد الخشبي. ما ينوي فعله يفزعني، لكن اشتعل بداخلي، في تلك اللحظة، أمل لم يخطر ببالي؛ وأدركت أن أحدًا لم يحاول في هذه السنوات اتخاذ مثل هذا الموقف من أجلي (ڤانچا، الذي اختفى من حياتنا منذ فترة بعيدة، كان غامضًا مراوغًا آنذاك)؛ في الواقع، لم يوجد قط وسيط حقيقي يعمل على أن نتواصل مع بعضنا، ويكسر التحفظ الذي ربما كان يوشك أن يفرقنا في ذلك الوقت. رن الهاتف المحمول طويلًا، مع أنه من المفترض أنها العاشرة مساءً عندها، أي لا يزال الوقت مناسبًا لاستقبال أي مكالمة. أسرعت النادلة خارج القاعة، فقد كان هناك شخصان مسنان، رجل وامرأة يجلسان أمام طاولة في الركن المقابل، وقد انتبهت إليه فقط في تلك اللحظة. أخذ البروفيسور هاتفه، ارتدى نظارته، أعاد إدخال الرقم، وحاول الاتصال مرة أخرى. وبقدر ما كنت قريبة منه، سمعت الرنين المتكرر ثم الصوت. قدم دي فيليتشي نفسه: أستاذ اللغة الإيطالية، صديق نينا،

والدتك، الموجودة هنا الآن معه، في إيطاليا. كانت كاتيا، حسب ما فهمت، منزعجة.

"والدتك بخير، ليست هي المسألة، لا تقلقي... وكيف حالكِ؟"، سألها؛ كان صوتها جذابًا نقيًا؛ ومعرفتها باللغة الإيطالية سليمة. "كيف تسير دراستك؟". لم أستطع بعدها أن أسمع الإجابات التي بدت لي مع ذلك، عند استماعي للصوت، غير محددة مقتضبة؛ فمن الواضح أنها قلقة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك. "أنصتي"، قال لها، "في الفترة التي توفي فيها والدك، كانت أمك تعمل معي؛ وربما أنتِ على علم بذلك؛ والدتك معلمة ماهرة، أحبها الطلاب ونحن نقدرها جميعًا، وخاصة لأنها استمرت في أن تعول نفسها من خلال عملها بأحد المتاجر؛ بل أعتقد أنكِ تعرفين المتجر، وغرفة المخزن التي كانت تنام بها، وبلا شك تعلمين التضحيات التي قدمتها والدتك. وربما لم يخبركِ أحد أنها كانت أيضًا معلمة أكاديمية لها التزاماتها ولم يكن سهلًا عليها أن تترك كل شيء وتأتي إليكِ؛ وهذا ما أخبرك به بنفسي. لقد عانيتِ يا كاتيا، وتعرفين أكثر من أي شخص آخر مدى أهمية المشاعر. الآن، إن سمحتِ لي، سأدعكِ تتحدثين مع والدتك". كانت يدي ترتجف عندما أخذت الهاتف وقربته من أذني.

«كاتيا»، قلت.

«أهذا هو الرجل الذي تركتِ أبي من أجله؟»، سألتني، لكن كان صوتها خافتًا متسامحًا، فور أن كسرته العاطفة.

«كلا، الأمر ليس كذلك»، أجبتها.

«أي نوع من الرجال هو؟».

«غريب الأطوار»، قلت لها وبقينا في صمت لبضع لحظات. «أنا في إيطاليا لحضور مؤتمر عن أنطون تشيخوف... غدًا سأرحل... أنا بخير، كل شيء يسير على ما يرام إلى حدٍ كبير... وأنتِ؟ تحدثي أنتِ يا حبيبتي»، قلت لها، «أنا لا أدري من أين أبدأ...».

«ليس هينًا عليَ أيضًا»، قالت، بمسحة من تردد طفيف انشرح معه فؤادي؛ «ليس من السهل عليَ طالما أن هناك تساؤلات يجب توضيحها يا أمي... إن وفاة أبي فرقت بيننا؛ فهناك بعض الأمور أجد صعوبة في تنظيمها. وأشياء لا أفهمها...".

"ما الذي لا تفهمينه؟"، سألتها.

"تحديدًا... في تلك الأيام... أتساءل، أود أن أستوعب، ما العلاقة التي كانت بينكما".

"لمَ تريدين أن تعرفيها، هل هي مهمة جدًا بالنسبة لكِ؟"، سألتها.

"إن ما يحيرني"، قالت، "هو أن أبي لم يسأل عنك قط، وهو يحتضر، ولم يلمح بأي شيء يخصك. كان يتحاشى ذلك وكأنما يعرف شيئًا أو يحدسه. قبل وفاته بقليل، أكدت له أنك ستصلين في خلال لحظات ولم يبدِ أي ردة فعل، ولا إيماءة بالتجاوب؛ فمن الواضح أنه لم يصدق ولم يكن ينتظرك...". أخذ صوتها يتقطع، لكنه ودود على أي حال، متماسك متناغم أيضًا كما أتذكره، وكما سمعته، آخر مرة في مدينة خاركيف. بوسعي أيضًا أن أتخيلها، وجهها الجميل، إنسانة جادة، وعيناها الواسعتان الثابتتان. لم أظن أبدًا أنها تشعر بالبغض تجاهي، لكني، وعلى الرغم من أن لقاءنا الأخير الوحيد كان يمكن أن يمنحني الأمل في شيء مختلف، تخيلتها امرأة أكثر برودة ونضجًا، حيث لم تتحدث معي لسنوات لأسباب ترسبت بداخلها لهذا الكره. وعلى العكس، فهناك شيء معلق، ضعف جديد ليس في الحسبان، من الواضح أنه أوقفها خلال السنوات التي عشناها معًا، حينما، في واقع الأمر، لم يكن صعبًا أن نعود لنتحدث مع بعضنا وكان لدينا الشغف في ذلك؛ فأفكار مشوشة لسنوات ورغبة استمرت طويلًا قد أخمدت أي استياء شديد متبقٍّ بداخلها، وهذا ما استطعت أن أفهمه من صوتها البعيد. وفي نبرة الصوت الودودة لمطلبها حيث بقيت به فقط الذكرى الأليمة، أستشعر حقيقة أن ابنتي ما زالت بحاجة إليَ. وأن تحفظ والدها ذاك لا يهمها كثيرًا الآن، فهي تريد حقًا أن تجدني بعد أن تطهرت الأرض من الشوائب العالقة بها.

"ليس هناك شيء يجب أن تعرفيه، أو تفهميه، أو تحدسيه. لا أستطيع أن أقول لكِ لمَ لم تسألي عني. ربما أفهم السبب، لكني ليس بوسعي أن أفسره لكِ. لا أعرف شيئًا عن تلك اللحظات، لا أعرف".

"لم يذكر اسمكِ قط، ولو لمرة واحدة".

"لم نكن نتحدث قط عن أنفسنا، نحن الاثنين... كنا نتحدث عنكِ فقط. لكن ليست

هذه هي المسألة. سامحيني. ليس هذا هو السبب".

"لمَ لم تتحدثا قط عن حياتكما؟ لمَ ذهبتِ في فترة حرجة جدًا؟ هل كنا حقًا في حالة لا يرثى لها؟ لقد سألت نفسي مرات عديدة ما نوع العلاقة التي كانت تربط بينكما حتى قبل المرض. كنت أفكر دائمًا في نوع الألفة بينكما التي كانت تستبعدني، لكن أحيانًا كان ينتابني انطباع بأنكِ كنتِ جافة". كانت تبدو أنها متهيئة لأي إجابة، ولديها النية حقًا لكي تفهم، لكني، على هذا النحو من المفاجأة، لم أدرِ ماذا أقول لها. إنها ليست أمور تُحَل بمكالمة هاتفية (ومع ذلك لا بأس، ربما استطاعت أن تنهي المكالمة ببضع كلمات). الألفة هي المصطلح الصحيح، منذ فترة بعيدة، وقبل مرضه بوقت طويل، لم تكن هناك سعادة في علاقتنا؛ لكن رباطًا قويًا جدًا كان يصل بعضنا ببعض... وقد رحلتُ لسبب وحيد، هو أنها لا بد أن تنتهي من دراستها بالجامعة، وكان والدها مريضًا على نحوٍ خطير ولم نعد نملك شيئًا. لكني ظللت صامتة، كان الأمر يستغرق وقتًا، ليتعرف أحدنا إلى الآخر. "أمي، أنا أنتظر مولودًا"، أخبرتني، "أنا... لا أظن أني سأتخلى عن ابني أبدًا. أن يعيش ابن دون والديه، كما عشت أنا في تلك السنوات، كالسير في الظلام. لا أتفهم كيف لم تستطيعي الحضور؛ عندما مات أبي لم أكن أدري ماذا أفعل، لم أكن أريد أن ألمسه، كنت أرغب في أن أصرخ". الآن صوتها منفعل طفولي بعض الشيء. "لو كنت يا أمي أتيتِ في اللحظات الأخيرة، كنت سأفهم أشياء كثيرة من نظرة أبي".

"يؤسفني يا كاتيا أني تركتك وحيدة"، قلت لها. انتبهت، في مواساتي لها للحظة، إلى وجود دي فيليتشي إلى جواري، وهو السند المهم لنفسي المحبطة، في الخبر الجديد، في الحقيقة، الذي أجد صعوبة في تقبله، مثلما تلقيت خبر وفاة والدها في تلك الليلة في شهر مايو، تتجسد أمامي القيمة الحقيقية وغير المفترضة للانفصال بيننا؛ والآن أعلم أن لديها عائلة لن أستطيع أن أكون جزءًا منها وبالتالي فقد كنتُ مخطئة، فتلك الحياة الباقية التي يبدو أن رقتها كانت تتوق إليها بصورة ما، وربما للحظة واحدة، والتي تخيلْتُها بالفعل، بعد أن عثَرَت عليّ من جديد، قد انتهت بالنسبة لها إلى الأبد، كما كان مؤلمًا ومتوقعًا أن تكون كذلك؛ فطيبتها ناشئة عن أنها أصبحت في موقع تنظر منه إلى الماضي بشيء من التباعد.

"هل لكِ صديق يا كاتيا؟ هل تنتظرين طفلًا؟"، سألتها. "لم أكن أعرف شيئًا يا

كاتيا، لم أكن أعلم...".

"سيولد الطفل خلال شهرين؛ سأبلغك يا أمي عندما يحين الوقت؛ وأعتقد أنه من المهم أن تكوني موجودة. في تلك المناسبة ستتعرفين إلى زوجي...".

"أعتقد أنه يمكنكِ أن تعتمدي عليّ يا كاتيا"، قلت لها. "سأكون بجانبك عندما يولد طفلك، إن سمحتِ لي. لكن إن كان من المفترض ألا أكون موجودة، لأسباب لا أستطيع حتى تخيلها الآن، ولأن الحياة غريبة ومن الصعب التنبؤ بما يحدث فيها، لا تغضبي، وأرجوكِ لا تتشككي بي مرة أخرى...". تورم حلقي (لقد تزوجت ولا أعرف حتى من هو زوجها، رجل لا أعرفه). ومع ذلك استطعت أن أقول لها أيضًا: "سعدت بسماع صوتك يا حبيبتي، وأنكِ بخير".

"وأنا أيضًا يا أمي"، أجابتني بصوت خافت وهي تنهي المكالمة.

أسندت الهاتف المحمول بجانب هاتفي. من خارج النافذة، كانت السماء الليلية صافية تنعكس بوضوح على قمم التلال، وهنا بالداخل لم يعد هناك أحد، على المائدة بقايا العشاء، والشمعة تذوب.

أخذت يد البروفيسور وضغطت عليها، بحرارة.

"لا أعرف كيف أشكرك"، قلت له. "كاتيا تزوجت"، أضفت وكأني أقول لنفسي، "ولم أكن أدري بذلك، وهي الآن تنتظر طفلًا ولا أعلم ما إذا كانت ستخبرني...".

"نعم، لقد سمعت"، قال لي. في تلك اللحظة، عانقته وبإحساس يائس خفي تجاه حياتنا القاسية التي لن نستطيع أن نتحرر منها، ظللنا متعانقين لبعض الوقت.

VIII.

مررنا بخطوات بطيئة وسط المدينة. ولكي نصل إلى الفندق توغلنا داخل زقاق آخر يمتد بمحاذاة جدار السور: من هنا تطلُّ سماء الليل، عذبة صافية، ومن بين الأشجار يمكن رؤية خطوط الأفق الرحب وأضواء القرى المتلألئة على التلال المجاورة. كنا نطلُّ من السور المنخفض: في الأسفل، في شارع تصطف على جانبيه الأشجار، كان يندر مرور السيارات به؛ وساحة انتظار السيارات على شكل هيكل السمكة شبه خالية على طول الطريق. كانت الأمسية الجميلة الصافية الدافئة تمتد حتى المدينة شبه النائمة. حسنًا، فعلى الرغم من أني أحاول أن أقحم ما حدث في الظروف المؤلمة لوفاة زوجي التي اعتدت على التعايش معها منذ وقت طويل، والتي في الواقع لم تعد تقلقني، فعدم سؤال زوجي عني في ساعاته الأخيرة لا أعتبره أمرًا ثانويًا؛ بل كان من الممكن لبعض التلميحات في وداعه الهادئ، والتي أشارت إليها ابنتي، أن تحل كل شيء؛ لكن ما قدَر أحد تضحياتي بشيء من التفهم والتعاطف؛ وزوجي لم يتكلم عنها كعادته. والآن ربما يأخذنا التفكير إلى أن تحفظه وهو يحتضر كان مشحونًا بالحب والأسف على ابتعاد كل منا عن الآخر، وبمشاعر ما كان من الضروري أن يذكرها؛ لكن إن كان على العكس من ذلك، وتحفظه يتضمن حكمًا؟ ماذا لو كان ذلك الجسد الذي لم يعد يتواصل إلا بالإشارات منذ فترة طويلة، كان يخفي آلام جرح النفس؟ ومهما كانت حالته النفسية، كان عليه أن يفسر هذا بشكل ما، حتى لا تحمل ابنته هذا الشك معها مدى الحياة وكانت ستتكون لديها صورة أكثر دقة للعلاقة بين أبيها وأمها. لكن لم يعد مهمًا. إن نسيم الليل اللطيف والقرب من البروفيسور قد جعلاني أرغب في أن تستمر الحياة مع آمال أخرى.

"عندما كان ابني صغيرًا كنا نأتي لنطل من هذا السور"، قال دي فيليتشي، "كنا نختار أحد ألوان السيارات ونبدأ في عدِّها وهي تمرُّ؛ كان يفوز من يستطيع أن يعد أكبر عدد من الآخر، وكان چورچو يختار اللون الأبيض على الرغم من أنه كان يعلم أنه الفائز في جميع الأحوال".

"منذ متى لم ترَ ابنك"، سألته.

«لم أره منذ سنوات، لكن منذ شهر، وتحديدًا في الخامس عشر من أبريل، ذهبت

لزيارته. تقابلنا في كانتربيري حيث يعمل، وهي مدينة بعيدة عن لندن؛ فكنت أريد الابتعاد عن والدته. تناولنا العشاء في مطعم صغير يطلُّ على قناة خضراء داكنة مملوءة بالطحالب الخيطية، وهي طحالب طويلة تطفو في اتجاه التيار».

«لم تخبرني من قبل أن ابنك يعمل»، قلت له.

«چورچو مخرج. يصور أفلامًا وثائقية لحساب بعض المؤسسات، لكنه يتطلع إلى إخراج عمل فني. هذه القناة التي أحدثك عنها، ضيقة إلى حدٍّ كبير، وتتوغل بين بيوت البلدة؛ فكانت الواجهة الزجاجية لقاعة الطعام الصغيرة على مقربة من الماء؛ وكانت القوارب القديمة تمرُّ بالقرب منا من حين لآخر، ولا تتخيلي، في غاية البطء... وبينما كنا نتناول العشاء، كان الظلام يخيم بالخارج».

«هل تتفق مع ابنك؟»، سألته.

«نحن الاثنان غريبان»، أجاب بجفاء. «بعد سنوات عمره الأولى لم يعد يعيش معي. هو شاب رائع، يشبه أمه؛ شخص ماهر محترف جاد. لم أتابع مهنته بأي شكل من الأشكال، لم أرشده في أيٍ من اختياراته، اعتمد على نفسه في كل شيء، وأصبح خبيرًا».

«مثل والده»، قلت له واستدار هو ناحيتي؛ فقد كان حتى تلك اللحظة يحافظ على نظرته ثابتة على الطريق الدائري، ويتابع، على امتداد الطريق الخالي تحتنا، الصور الدفينة في ذاكرته، ولكن من الواضح الآن من تعبير وجهه أنه سعيد بوجودي إلى جواره.

"سآخذك معي يا نينا إلى هذا المطعم الإنجليزي، فهو تحفة فنية من الكآبة، وتلك القناة بين المنازل على طراز "تيودور". إذا كان لا بد من أن تنتهي الأمور، فلتنتهِ على هذا النحو، بصورة شاعرية..."، قال بنبرة ساخرة. "ثم إنه مع ابني، نصل إلى النهاية حتى قبل أن نبدأ. مثل الشارع الرئيس في بلدتي، خطوتان وتكونين بالفعل في آخره؛ حيث يوجد على أحد الجانبين منزلنا، وعلى الآخر مبنى البلدية، وفي الوسط مقهى صغير واثنان من قصور النبلاء الضيقة في حالة نصف متعفنة، وهذا كل شيء تقريبًا. كان أبي وأمي يأخذانني في نزهة على امتداد هذا الشارع في المساء، كلنا نرتدي الملابس الرسمية كما لو كنا في شارع الشانزليزيه؛ وإن كان لا

بد أن تشاهدي وجه أبي، لرأيته في منتهى الرضا؛ ويرتدي قبعته لبضع خطوات. كم من السهل أن نخدع أنفسنا، جميعنا. عندما نلت درجة الأستاذية في الأدب الروسي ظننت أني أحلم، بدت لي الحياة طويلة وأن ما حصلت عليه ليس إلا بداية لشيء من المفترض أن يأتي، جسرًا مفتوحًا لحياة خالدة سخية سأكون فيها إنسانًا سعيدًا، سعيدًا، سعيدًا؛ وكنت أعتقد، حينئذ أن هناك وقتًا وفيرًا... خطوتان وارتديت قبعتي...". نظر إليّ مرة أخرى، في تهكم، ولكن بعمق. قال لي: "ومن ناحية أخرى، إنه الشيء نفسه معكِ أيضًا، سينتهي كل شيء سريعًا، وقد فقدنا أيضًا وقتًا كبيرًا. طوال هذه السنوات كنت أفكر دائمًا في أن أعيدك بشكل ما". وابتعد عن السور المنخفض. "هل ستأتين معي يا نينا، في أي مكان؟ إلى أين نريد أن نذهب، أنا وأنتِ يا نينا؟"، سألني وكله حيوية لكنه متوتر ويمدُّ إليَ ذراعه. وبدأنا في السير.

"طفولتي أيضًا"، حكيت له، "عرفت أماكن محدودة، على الرغم من أني عشت دائمًا في مدينة كبيرة جميلة". توقفت عن الكلام لأنظر إليه. "لمَ لا تأتي عندي في كييڤ؟"، اقترحت عليه. "لمَ لا تلحق بي؟". لكنه لم يجبني. استأنفت: "في كييڤ، خلف ميدان نيظاليچنوستي، يوجد مطعم مثل الذي حكيت عنه تمامًا؛ والنادلات يرتدين الزي الأوكراني التقليدي؛ فقد قيل لي إنهم يقدمون فيه أفضل حساء بورشتش في العاصمة؛ ويمكننا الذهاب معًا. سأدفع أنا فاتورة الحساب، وستكون أنت ضيفي. سنمشي على طول شارع خريشتشاتيك، ثم نذهب لزيارة كنائسنا الأرثوذكسية... الأثرية الرائعة... سانتا صوفيا، سان ميكيلي، وعلى وجه الخصوص، بيتشرسكا لافرا، دير الكهوف؛ وسنهبط على امتداد التل الذي يقع عليه الدير حتى نصل إلى مجرى نهر الدنيبر ثم في القبو، بين التوابيت".

«توابيت؟».

«ألم تسمع عنها قط؟ إن الكهوف تحتفظ برفات الرهبان البارزين؛ إنها رحلة تحت الأرض بين بقايا الأجساد التي يجب أن نمرّ بها في إجلال، ونمسك بشمعة في أيدينا».

«سوف آتي إليكِ بالتأكيد، سيدتي، إذا دعوتني. أعدك بذلك. سأركع أمام أجساد الرهبان القديسين لأصلي من أجل روحي؛ وفي المساء سنذهب إلى هذا المطعم

الذي تتحدثين عنه لتناول الحساء، بشرط واحد: أن تكون النادلات حسناوات... فتيات جميلات ممتلئات». وابتسم لي.

«إذًا ستأتي. لقد وعدتني»، قلت له.

واصلنا السير بطول السور، في الطريق المرصوف، المحصور بين الجدار المنخفض والمنازل، وهو يمشي بخطوته منتشيًا. أخذت أتابع حركة ظلينا المتشابكين، وتكوينهما وتشتتهما وتشكيلهما مرة ثانية تحت أقدامنا أثناء تناوب مخاريط الضوء. كان ظلُّ زوجي له هيبته، وظلّي صغير بجانبه (لم أسر مع رجل غيره وذراعانا متشابكان)؛ في الشوارع الخالية بين الوحدات السكنية في ضاحيتنا، لم يكن من المستحب التجول في المساء، لكني كنت أشعر بالحماية إلى حدٍّ كبير. وإذا ما اضطررت إلى العودة بمفردي لأحد الأسباب، بطول الجزء الذي لا تصل إليه الحافلة، فعادة ما كان يأتي إليّ، بخطوة سريعة؛ وأحيانًا كان يجرُّ معه كاتيا حتى لا يتركها وحدها في الشقة، وكانت بالكاد تسير وراءه، وعليها أن تسرع لتبقى بجانب والدها الذي كان منشغلًا بي. كانت تتبعه، *بخطوة غير متكافئة*. كان ظلُّ البروفيسور رشيقًا لكنه هيكل عظمي، إنه ظلُّ لجسد هش ومهدد رغم شخصيته التي تفرض نفسها، وكونه رجلًا قادرًا بدرجة كبيرة على الحسم والفرح... هذا التموج في الظلال يشبه تموج خيوط الطحالب؛ وبوسعي أن أتخيل القناة الخضراء بين البيوت في المساء، والأب والابن معًا، على العشاء؛ لا بد أنها كانت لحظة مهمة أيضًا للمصالحة بينهما. لكن لمَ الآن فقط؟ أعتقد أنهما أرادا أن يأخذ كل منهما مسافة عما يخص علاقاتهما الشخصية، منذ قرارات مادالينا الأخيرة، أو ربما رأى البروفيسور أنه من الأفضل أن يعهد الأم لابنها، في تفاهم سلمي، لكي لا يشعر هو بالحرج لأنه احتفى بها، أو من يدري ما الذي كان يدور برأس هذا الرجل الغريب الذي كان يفكر منذ وقت طويل، بينما كنت أموت من الوحدة، في أن أعود إليه مرة أخرى...

يقع الفندق في نهاية الزقاق، وفي ساحة صغيرة يُرى الضوء الأحمر للافتة؛ أعرف أنه فندق صغير فاخر داخل مبنى قديم، وله مدخل أنيق؛ إذ توجد به الغرفة المحجوزة باسمي ونام بها أيضًا دي فيليتشي أثناء أيام المؤتمر. سننام معًا، هذه الليلة.

"النوم هنا أكثر راحة بالنسبة لي... ثم إنه كانت هناك سيدة من المفترض أن تقيم هي أيضًا بفندق الكريستالي وكنت سأتمنى لها بكل سرور، في كل أمسية، ليلة سعيدة، لكن لم يرها أحد قط".

كل شيء صار من الماضي: تلك الأمسية البعيدة عندما كانت تمطر، والغرفة بمنزل ماريانچيلا، والسرير الذي تقاسمته مع ليزاڤيتا، تلك الليالي التي لم أكن أتوقعها، وشعرت فيها بوجه عام بأني على ما يرام، وفي مكاني. الآن أدرك أن إقامتي في ذلك المنزل ومرافقة ليزاڤيتا في صعود الطريق الريفي وهبوطه بين أشجار الزيتون، مع المغتربين الآخرين الذين كانوا يسيرون أمامنا في أعداد غفيرة مع حلول الظلام، وفي المساء في مكتب الكاهن الراعي، كان كله مهمًا وبوسعي أن أحكيه لابنتي وأوضح لها لمحة عن هذا الشعور بالآخرين الذي لم نعرف أنا ووالدها، في حياتنا المتحفظة، أن نعززه فيها. هناك مقعد الحديقة بالقرب من الفندق؛ جلست عليه والبروفيسور جلس إلى جواري؛ وأحاط كتفي بذراعه واتكأت أنا عليه، مثلما حدث في الجولة التي قمنا بها أعلى التل، في يوم حار جدًا، قبل عدة سنوات. بقينا صامتين؛ كنت أفتقر بلا شك أنا وزوجي إلى الوعي ببعض الاحتياجات لإنسان يعيش إلى جوارنا؛ وكان يوجد نوع من الاختناق في حياتنا الأسرية، الذي لا بد أن كاتيا قد عانت منه. وإذا ما كنت قد أخبرت به دي فيليتشي، في تلك اللحظة، كان سيقفز منزعجًا، وينهال عليّ بوابل من الكلمات، ويطلق عليّ جليسة متبلدة المشاعر. على العكس، كنت أود أن أحكي لابنتي عن الليالي التي قضيتها في منزل ماريانچيلا، وعن قبر زوجي، أمام الصليب الأبيض، بين الشجيرات التي أذبلها الصقيع؛ إنه مكان موحش، في القرية التي ولد بها، حيث تهب الريح دائمًا وكنا نذهب إليه معًا، في مواعيد محددة، في أواخر الخريف؛ فالمكان له طقوس حقيقية بالنسبة له، وهو آخر أثر لارتباطه بوالديه، لم يتحدث عنه قط، يبعد مسافة ساعات على الطريق السريع، ثم طريق إقليمي مترب، ثم الممشى بين الطرق الجانبية والتقاطعات المتساوية كلها والمستوية على الأرض. وكانت كاتيا تتبعنا في صمت، وهي تشعر بالبرد، وقبعتها البيضاء الممدوة على عينيها. لم نكن نسمح له نحن الاثنتان بالذهاب بمفرده، ولبضع لحظات من التركيز أمام صور والديه، بالكاد استطعت أن أعرف أنهما كانا لا يشبهانه. كان رجلًا وقوزًا، متشبثًا بعواطفه ولكن بلا عيوب؛ فقد كان يحب أن يشير إلى قبور أولئك

الذين عرفهم، ويشرح لنا علاقاته بأناس لا نعرف عنهم شيئًا وصلة القرابة بهم، شخصيات من طفولته البعيدة وهو ابن أحد الفلاحين في قرية صغيرة منعزلة. بعد الزيارة توقفنا لتناول الطعام في مطعم على بعد بضعة كيلومترات من الطريق السريع، مكان فقير به أربع طاولات أمام نافذة معتمة يمكن من خلالها أن نلمح أفق السهوب المهجورة، يمر بها منعطف لمجرى مائي؛ لكن القاعة كانت مدفأة بطريقة جيدة فدبت فينا الحيوية؛ في تلك اللحظة، نشأ جو من الفرح، وأخذت كاتيا تتحدث، بطريقة متحمسة قليلًا متكررة، كعادتها دائمًا عندما كانت تشعر بالراحة. كانت هي من قرر دفن والدها هناك؛ وعند عودتي سأذهب دون شك إليه، وسأستقل القطار، ثم أي وسيلة مواصلات تجاه القرية؛ فأنا لم أقم بزيارة قبر زوجي منذ فترة طويلة. أو ربما سنذهب معًا، أنا وهي، لكني لا أعول على ذلك، بل إنه ليس مناسبًا في حالتها. في هذه الأثناء، مد البروفيسور ذراعه إلى مزهرية قريبة، تستند إلى حامل من الحديد المشغول، ونزع زهرة مارجريتاووضعها على ساقي. ابتسمت له. وتساءلت من سيهتم برجل طيب كهذا.

"سأرسل أحدًا لإحضار حقيبتك"، قال لي.

"لا أظن أني سأنام هنا"، أجبته.

"لم؟"، سألني واستدار ليحدق في.

"من الأفضل أن أنام عند ماريانچيلا، كما حدث في الليالي الأخرى"، أجبته.

أخذ يراقبني بشكل واضح وبلمحة من التساؤل.

"في هذه الحالة سأستدعي لكِ سيارة أجرة"، قال لي وهو ينهض، "ليس من الصواب أن تذهبي إلى هذا الحي سيئ السمعة وحدك في هذه الساعة". حاولت أن أستوقفه، كنت أود أن أبقى معه لمزيد من الوقت، وأن أفسر له، لكنه ابتعد، دخل القاعة وقام بالترتيبات مع حارس الفندق، استطعت رؤيته من وراء الواجهة الزجاجية للمدخل، في هيئته الحاسمة المعتادة، ثم خرج. بقيت جالسة على مقعد الحديقة؛ لم أكن أريد الانصراف، لكن في الحقيقة قد حان الوقت.

قال لي: "تعالي، ستكون سيارة الأجرة هنا بعد قليل". لحقت به أمام المدخل، بينما الباب الزجاجي يستمر في الفتح والغلق. تحركنا إلى الأمام. وسيارة الأجرة لا

تنتظر، فعانقنا بعضنا بعضًا، وأسندت وجهي إلى صدره ولم أرغب في الانصراف. فتح لي السائق الباب فاضطررت إلى الصعود، وظل البروفيسور ينظر إليّ حتى تحركت السيارة.

النهاية

حاليًا أنا هنا، مع هذه الطفلة. أقوم برحلة بالقطار لمدة خمس ساعات كل أسبوعين لأبقى معها لبعض الوقت وأعود قبل المساء. تلقيت المكالمة في اللحظة التي كنت أدفع فيها عربتها وأنا متمتعة وشاردة في هذا الميدان الضخم، المحاط بأشجار جرداء، في دفء منتصف النهار ليوم خريفي لطيف. جوليو دي فيليتشي مريض جدًا. أرادت إستير أن تنبهني. قالت إنه يقدرني وكان يتحدث معها عني؛ لذا رأت أنه من الصواب أن تخبرني بالموقف. يبدو أن زوجته تعتني به منذ أن تفاقم مرضه وقبل أيام قليلة عاد ابنه أيضًا من لندن. إن إستير لديها أسباب وجيهة لكي تعتقد أن دي فيليتشي يعرف خطورة حالته منذ فترة، أو على الأقل كان لديه من قبل بعض الشكوك أثناء أيام المؤتمر، منذ ستة أشهر وأيضًا قبلها، في الفترة التي بكى فيها معها بسبب هجر زوجته النهائي. كانت مادالينا ستبقى وحيدة، ومن المحتمل أنه فعل كل شيء لإقناعها بالرحيل، دون أن تخمن هي ذلك؛ وعهد بها إلى ابنه، وهذا في الواقع هو ما فعله في كانتربيري، ومن ناحية أخرى، عندما أعيد التفكير في حديثه معي أيضًا، لا مجال للشك في أنه كان يعرف من قبل.

الطفلة نائمة، وأنا أشاهد وجهها، بودي ألا أبتعد عنها، ولكن حان الوقت للذهاب. تأتي ابنتي إلينا، وهي ما زالت ترتدي زيّ العمل؛ فتجدني بين دموعي؛ شرحت لها وظللنا متعانقتين. ربما الآن فقط، وبعد سنوات عديدة، بينما تستجمع نحيبها الذي يهزني أخيرًا، تستطيع أن تفهم، ودون أثر لأي حُكم مسبق، شعور والدتها تجاه ذلك الرجل.

ولكن فات الآوان. سأتوجه على مهلٍ نحو المحطة، وسيهدأ المشي ثم الرحلة بالقطار من روعتي؛ ألقي التحية عليهما، ألمس جبين الطفلة النائمة بلمسة مداعبة؛ وبينما أتوغل داخل الضواحي المنعزلة، فإني أعهد قدرتي على التحمل تحديدًا إلى التفكير فيها.

لقد كنت قارئة شغوفة لتشيخوف، كل هذا يبدو وكأنني قد تنبأت به دائمًا.

الرواية الفائزة بجائزة "مونديللو" الأدبية الدولية 2019

نينا بطلة الراوية، امرأة أوكرانية تبلغ من العمر أربعين عامًا، وتتحدث الروسية. وصلت إلى إيطاليا لرعاية سيدة مسنة. تركت زوجها المريض وابنتها الحبيبة كاتيا في بلدها، آملةً أن تكون قادرة على تأمين مستقبل مشرق لها، والتخرج في كلية الطب، والزواج. انقسمت الوحدة التي عاشتها بين الأعمال المنزلية وصحوة الشغف بالعلوم الإنسانية. في أوقات الراحة، كانت تتردد على مكتبة الجامعة بالمدينة التي انتقلت إليها لتقرأ أعمال أنطون تشيخوف على وجه الخصوص، مما دفعها إلى الالتحاق بمعهد الدراسات السلافية بالجامعة. وهناك تلتقي بأستاذ اللغة الروسية وأدبها، جوليو دي فيليتشي، الذي يعرض عليها عقدًا للتدريس بشكل مؤقت. كانت العلاقة بينهما مبهمة إلى حدٍ كبير وقائمة على مناسبات قليلة عالقة، ومع ذلك انتهى بها الأمر إلى البقاء في إيطاليا، مما عرض العلاقة مع ابنتها للخطر. في تلك الأثناء، أتاح وصول باحث جديد الفرصة لدى فيليتشي ليترك نينا تعود إلى بلدها. لنتابع بعدها ما حدث مع نينا.

جوليا كورساليني: تعيش مع زوجها وطفليها بمدينة ريكاناتي. حصلت على ليسانس الآداب والدكتوراة في الدراسات الإيطالية. تُدرّس في ليسيه ليوباردي الكلاسيكي في ريكاناتي وتعمل محاضرة بجامعة ماتشيراتا. نشرت في عام 2018 روايتها الأولى "قارئة تشيخوف" التي نالت عدة جوائز منها عام 2019 بجائزة مونديلو الأدبية الدولية، وسوبر مونديلو، وجائزة لي أزيني، وجائزة برجامو القومية للسرد الروائي. في عام 2020 نشرت رواية "كوليا. قصة عائلية".

Cover design by: Alaa Elnewehy





